أحمد فريد

قيامة

مجموعة قصصية

مكتبة آدم
t.me/AdamLibrary

قيامة

أحمد فريد

مكتبة آدم
t.me/AdamLibrary

اسم الكتاب: قيامة

المؤلف: أحمد فريد

مراجعة لغوية: ضحى صلاح

رقم الإيداع: 2012/20911

الترقيم الدولي: 978-977-6376-32-8

أشراف عام:

أحمـــــد أبوزيد

محمد جميل صبري

© 2012 جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بايةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من المؤلف، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

دار كيان للنشر والتوزيع – 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو أم المصريين – الهرم
محمول : 02189344096 – 01001872290 – أرضي: 0235688678
www.kayanph.com – kayanpub@gmail.com

قيامة

أحمد فريد

مجموعة روائية

فهرست

غربة..... 7

بشر..... 13

قيامة..... 33

نصف..... 53

شيطانه..... 73

الدجال..... 101

20..... 119

أمس أبصرت جارنا الخزافا.. يجبل الطين كيف شاء اعتسافا

ويكيل المقدار منه جزافا

وكأني أسمعت بين يديه.. صوت ذات مظلومة تشتكيه

آه رفقًا فأنت طين وماء.. أيها المرء لا تسمني العذابا

عُمر الخيام

غُربةٌ

استيقظ من سباته.. أُوقظ بفعل نُسِب لمجهول. ليبدأ يومه المُتأخر بأغرب حالةٍ مُمكِنة: خواء صحراويّ في ليلٍ بهيمٍ. ربما لو كان عقله مُمتلئ بنصفِ الوعي فقط؛ لأدرك تلك الحالة، واستوعب جزءًا من منطقها. أما والحال هكذا فليس هنالك للإدراكِ سبيل.

كان وعيه –حرفيًّا– خارج حدود عقله؛ بل خارج حدود روحه! كأنما انفجرت داخلها قنبلة سحرية، قذفت بجوهرها خارجها.. شتتتها فصارت مجوفة القلب، بلا دال ولا مدلول.. بلا معنى.

صار العدم كما يجب أن يكون.. أو هو ما دون العدم!

ببعض الوعي الماثل بين دفتيّ ذاك الجسد، مسحت الكف اليُمنى على الشعر المُجعد الأشعث، وعبثت الأخرى في العينين بقوة تكاد تعتصرهما؛ كأنما تحاول أن تردهما عن التيه الذي خاضتا فيه.

كسيارة قديمة همّ الجسد، وجاس ببطء في ظلال الغرفة مكتومة الرائحة، قبل أن يفتح بابها عابرًا سلامات أمه التي تحمل صينية الأرز من أجل مزيد التمحيص، وراءها أخته المبتسمة دومًا، خلفهما قبضة –طالب الطب– أخيه في الصدر مُرحبةُ، وانتهت الصباحية بصفعة الماء للوجه المُتضخم بغازات النوم.

هنا فقط استعادت روحه جزءًا من روعها المخطوف.

توضأ، أدى صلاة وسطى كادت تنقضي. داعب أخته، مازح أخاه، ثُم دلف أبوه ليبدأ التقريع.

(إنت مش هتشوفلك شغلانة بقا بدل ما إنت قاعدلنا زي العمل الرضي كده!)

كان على وشك أن يشرع في محاولة إقناعه -للمرة المليون- أن البحث أضناه، وأن التعب أهلكه، وأن بطالة يده قد نحست كيانه كله؛ فصار يمقت نفسه، وأن دبلومه البليد لم يشفع عند العالم كله بشيءٍ. لكنه آثر الصمت، وضغط زر الهروب وسط صمت الجميع وإشفاقهم.

في لباس الخروج هرب إلى شارعه، وهرع إلى مقهاه حيثُ الشلة الجالسة، تلعب وتمرح. وهو جالسٌ بينهم، يعاني سكراتٍ غامضة يحاول فك طلاسمها.

شيئًا ليس على ما يُرام...

(كل حاجة)..

وجد نفسه يهمس بالكلمة بصوتٍ مسموع، فالتفت إليه صديقه (عادل)، بينما يقذف كارت لعبه، قائلًا: مالك؟

لم يرد...

حمل رأسه عينيه إلى المقهى وجالسيه، الذين يعرفهم واحدًا واحدًا، ثُم إلى التلفاز الصائح بمباراة قديمة للأهلي، و(صلاح) جاره الذي يعمل هُنا...

سرح بصره إلى مربع الشارع، المنظور عبر المقهى.. ثُم فجأة حملت قدماه جسده واقفتين، وسارحتين به للخارج.

لن تفيد هُنا محاولات (عصام) استجوابه عمّا هنالك، وعن أيّ مدى هو مازال بخير. فهو الآن وحده. يعلم هذا ويدركه جيدًا.

كحارس مجنون، وقف أمام المقهى مُتطلعًا بشرود إلى الأبنية والأناسيّ. ماذا يحدث بالضبط؟! لا يفهم! لكنه يدرك أن هنالك شيئًا ما خطأ .

لكن أهله هُم أهله، الناس هم الناس، الشارع هو الشارع. كلٌ في مكانه السليم وفي فلكه الطبيعيّ (وربما أكثر من الطبيعيّ!)

إذن، لِمَ هذا الشعور العجيب! إنه يخوض خدعة عملاقة، أو تمثيلية شديدة الإتقان. أنه تُرك وحيدًا فجأة، والخلق يحيك المؤامرة الكبرى ضده ضاحكًا على بلاهته.

ثُم طفح تساؤل جديد بباله، ألقاه عليه من فوره، ليتردد...

ربما أنت ليس أنت..أو لم تعد كذلك.

كان صدى الخاطرة الأخيرة مُختلفًا تمامًا عن كل ما خطر بحياته، ليس بسبب طبيعتها؛ إنما بسبب ما ترتب عليها من وقائع. إذ شعر بالفعل أنه يقع داخل نفسه، كأنما هو منزل تمت هندسة تفجيره لينهار داخليًّا – وقد انهار وصرخ بالفعل-، ليسقط في مكانه –وقد سقط تحت قدميه وسط الشارع.-

لم يفقد وعيه كما توقع، ولم يمت كما تمنى. فقد ذاب كل ما حوله، وصار زائغًا، حفّه ظلامٌ عجيب ليس بظلامِ الواقعِ؛ وإنما هو أقرب لظلام

العقل. تلفت حوله بذعر، ولمّا رفع بصره وجد من يقف أمامه مُنبلجًا من العدم.

(اهدأ واطمئن.. سنعيدك إلى عالمك...)

هكذا دوى صوت محدثه صاحب الملامح الغير مميزة بأرجاء العدم. فبُهت كيانه وصوته أكثر: من أنت؟

رفع صاحب الصوت حاجبيه وصوته، وهو يقول: أعلم أنك لا تتذكر شيئًا يا (محمد).. فقد محونا ذاكرتك بالتفاصيل التي تمت بيننا كي لا تفسد تجربتنا.. وهو ما سيحدث مُجددًا قبل أن نُعيدك إلى عالمك، لا بأس.. دعني الآن أنعش ذهنك .

جلس الغامض، و لم يتبين (محمد) ما الذي جلس عليه. لكن ذهنه المُتسائل تغاضى عمّا ترسله العينان من صور مُستنكرة...

سأله الرجل: أقرأت في عصرك عن العوالم الموازية؟

أضاء عقله كله بالأحمر لكلمة: (عصرك)، لكنه قال: نعم..أعلم ما العوالم الموازية.

لوّح الرجل بيديه: تجربتنا هذه.. تندرج في هذا المجال. فالمدهش أن فرضية العالم الموازي –على عكس ما توقعنا- كانت صحيحة تمامًا.. بل صحيحة أكثر مما ينبغي! .. فتلك العوالم لم تكن فقط موازية، بل متطابقة تمام التطابق!.. المهم،عمدت تجربتنا على اختبار فرضية طبقناها في حالتك.. ماذا لو أبدلنا شخصًا في أحد العوالم بصورته الموازية في عالمٍ آخرٍ والعكس بالعكس.. ماذا سوف يكون شعور الشخصين؟ هل سيتمكنان من الإحساس بالفرق؟ وهل ستتطابق مشاعرهما حتى مع

الأخذ في الاعتبار تدخلنا الخارجي في مسارهما؟!

وهو ما تم؛ قمنا بوضعك في عالم نسختك، ووضعنا نسختك في عالمك بتقنيات متطورة لا سبيل لكم إليها الآن طبعًا.

شلّت الصدمة عقله -أو هكذا خُيل له- حاول (محمد) مهادنة عقله وتهدئته ليفهم، بينما قال مُحدثه بانفعال: وكانت النتيجة المُدهشة.. حالة اغتراب كامل!.. أو هي غربة حقيقية، وليست مُجرد شعور؛ كأنما كنتما تحييان في مكان مُخالف تمامًا لعالميكما.. بالتأكيد لم يستطيع أحدكما القفز لذلك الاستنتاج البعيد عن منطق الحياة العملية لديكما وملابسات حياتكما، لكن نفسكما شعرتا به بصورة غير مسبوقة وغير متوقعة!.. رغم تطابق عالميكما في كل شيء!

استرجع (مُحمد) كل أحاسيسه الغريبة القريبة مُتأكدًا، ثُم قال ببرود من صار خارج لُعبة مُعقدة: ولماذا أنا بالتحديد؟

ابتسم صاحب الوجه غير المميز: للأمانة؛ لا يوجد شيءٌ خاص بك يا (محمد).. المسألة مسألة اختيار عشوائي في حقبة زمنية عشوائية انتقيناها بحيث يمكن للمُتطوع أن يفهم نظريتنا دون مرحلة التطبيق.

سأله (محمد) بفضول: وهل تطابقت النتيجة بيني، وبين نسختي أيضًا؟

قال الغريب، وأثار الانبهار في نبراته: بالتأكيد.. تمام التطابق!

كست خيبة الأمل (مُحمد) لسبب لم يفهمه. ربما لأن النفس لا تتصور وجود مطابق لها؛ فأنانيتها تفترض فيها الاختلاف والتميز.. وليس مُجرد تكرار وتقليد.

-إذن ماذا ستفعلون بي الآن؟!

ظهر أول انفعال بشريّ على محدثه، وهو يتنهد قبل أن يقول بسرعة مريبة: الآن سنضطر لمحو ذلك الجزء من ذاكرتك.. حرصًا على سرية الأمر وعدم العبث بمجرى الزمن.

انتبه (مُحمد) لخاطرة، جعلت قلبه يختلج حيرةً، كان يشعر أن جزءًا من الحقيقة لم يكشفه هذا الغامض بعد، ثُم داهم لسانه السؤالُ: ولكن ما المُقابل؟!

أرهف سمعه، وتركيزه في انتظار الجواب. لكن الغامض لم يضيف شيئًا، فقط حافظ على ابتسامته، قبل أن يُضيف: وداعًا!

حاول (محمد) أن يقل شيئًا، لكن ستار الظلام حاصر عقله، ثُم انقض كما لم يفعل من قبل .

سريعًا تبدل الظلام المُحيط، وتشكل ليرسُم سوارًا من بشر، أحاط به وتجمهر، بعد السقوط الأخير. عادت ملامح العالم واضحةً، برزت أبعادها من زيغها، واستأنف الزمن رحلته داخله مُجددًا.

همهم (محمد) بكلماتٍ لم يفهمها، ودار بصره في العالم من حوله بنظرات غير مُستوعِبة. أخذ صديقه (عادل) بذراعه، وأنهضه، مُشتتًا ذباب المارّة بصياحه...

قام (محمد)، ناظرًا لوجه صديقه القلق، وقلبه ينفث دماءه براحة ، وإلى جسده يرتد -فجأة- دفئ غاب عنه لفترة بدت طويلة. لم يلبث أن لذعته رنّة البعث إلى بؤسه مُجددًا ، كما لسعته رشفة شايه على مقهاه.

بشر

-١-

فتـــاةُ الكمانِ

كعادتي ابتسم، عندما يركب كياني أوتار الكمان .

أعزفُ، وبسمتي الثابتة تُحلق على محيايّ كأنما نحتها وترٌ من آلتي. وبرودة المكان المُكيف تُلصق عرقي بجلدي، فتُحيله إلى طبقة شبه صمغية. لكن جسدي المُنفعل المُهتز لا يبالي...

أعزفُ، وأعلمُ أنني أتفوق على نفسي الآن. يهزني اللحن فامتطيه مُغلقة العينين إلى أُفقٍ بعيد، في أقصى بقاع كوني الصغير.

أعزفُ، وروحي تتقافز داخل إناء جسدي. تكاد تنسكب منه إلى خارجي، هاربة إلى الأفق الأوسع.

ينغلق ظلام العالم حولي ويبتلعني، فلا أبالي بكل الزبائن الجالسين، يتناولون عشائهم في تأنقٍ مفتعلٍ. ويتضاحكون بخفوتٍ، يحاول ألّا يجرح هدوء المكان العطر وعذوبة اللحن.

أمتلكُ الدُنيا. أعلم أنني امتلكتها لتوتي. أشعر بلحني -المُقتبس- يشذّب نتوءات العالم، يُحدد غامضه، ويعيد تلوين بقاعه التي أهتها الزمن

والبشر.

أهو غرور؟ تساؤل ليس له محل بشخصي القانع. فعلى العكس، كانت تركيبتي دومًا أقل وأتفه من مُتطلبات الغرور الباهظة. فلستُ صاحبة إبداع –إلّا لو سمينا القدرة على الاقتباس إبداعًا– ولم أكن يومًا. هي صفة تمنيتُها في كل أحلامي؛ اليقظة والنائمة. أمنية لم تتحقق وهبة أنا –أغلب الظن– أقل من استحقاقها.

أما إذا كان انعدام الطموح هو تهمتي؛ فربما يكون عليّ المثول لتلقي الحجارة بكل شجاعة.

أعترفُ، وأُقرُ أنني هاهُنا، مذنبة. فلستُ من أسرة تُناطح طواحين الواقع من أجل كفاف بعيد؛ إذ أن عمل أبي كمستشار قانونيّ لإحدى أضخم شركات البترول في الكويت يكفي لحياة مُرفهة بالنسبة لأسرتنا الصغيرة: نواة من أُم مُعتزلة ألوان الدنيا الفاقعة، يدور في فلكها أخ كبير، امتهن الطب كما لابد أن يفعل أي مصري يُطلب منه التفوق في أم الدنيا. وفي نفس المدار –أو أقرب– تقع الطفلة الصغيرة، آخر حبة في العنقود القصير، والتي تأخذ دائمًا أكثر من حجمها؛ لتناطح الأخ في كثير الأحيان. ولا يُطلب منها شيئًا مُحددًا سوى الزواج سريعًا، لتستقر المنظومة ولا تنكمش النواة حزنًا على قسمةٍ لم تأتِ، ونصيبٍ كان في الإمكان.

لابد من القول هنا أن القسمة أتت أكثر من مرة، لكن النصيب لم يكن على مستوى الحدث في كل الأوقات. وهو ما جعل معظم الصديقات تبتعد بحكم النمو في تربة جديدة، والانتماء للبستان الجديد

الأكبر والأدوم على كل حال. أضف إلى ذلك -كما هو الحال الغالب في بيئتنا المصرية- تُعامل العانس كأنما هي مُصابة بلعنة عُضال، قد تبلغ حد الجذام في الحالات المُتأخرة، والتي بحمد الله لم أصل إليها بعد. على كلٍ، أنا أعلم أن نواتي العزيزة لن يهدأ لها البال إلا وقد أنهت مُهتمها على أكمل وجه. أو ربما أفعلها أنا قبل أن تنفذ مخططها. لكنني لستُ منشغلة بتلك الفكرة رُغم توهجها داخلي دومًا في أقسى لحظات وحدتي وكآبتي.

كان ما يشغلني حقًا هو حُلمي الذي لم تغب شمسه عن سمائي لحظة. حلمٌ غامضٌ إلى أدنى هوّة، هلاميّ إلى أقصى حد. قد يكون كل شيء، وقد يكون لا شيء.

هو حُلم الاكتمال. أبغاه رغم إمكانياتي المحدودة، وقناعتي البالغة. أيّ تناقض هذا! هو حالنا جميعًا على كل حال. الشجرة المُحرمة.. السعي نحو نور لن يطوله الجسد العاجز، والخيال قليل الحيلة. حُلم لحظة إبداع حقيقي، يتضاءل جوارها مُجلّد العُمر.. يصير جوار جلالها بلا معنى. ليس ذلك عيبًا فيه؛ إنما تعظيمًا لتلك اللحظة الكاملة.

هكذا أجد نفسي باحثةً عن لحظتي الأثيرة وسط كل الألحان التي انتقت أوتارها أناملي وجرت فوقها عصاي. عسى أن تُخطئ كماني العزف مرَّة ولو صدفة، فتكون لحظتي التي هي أغلى من كل مرّاتي الصحيحة.

عسى...

أقول عسى، وأنهي لحني الحالي، فيدور التصفيق بالأكف الهادئة

الفخمة؛ ليُعلن انتهاء فقرة الفتاة البائسة في المطعم الفرنسي الفخم. ولا يلبث أن يذوي سريعًا كاللحن الذي سبقه؛ لا في الآذان يُطرب ولا في العقول يدوم.

-٢-

راعيةُ الغنمِ

أقفز إلى سابع سماء، ثُم أهوي إلى سابع أرض.. أذوب في كل الفضائل، ثُم أنغمس في كل الخطايا.. أبحثُ عن نفسي وسط نفسي، وسط أرقى سماء وفي أحقر أرض.. أتخبط بين أربعة عشر طبقة من الحياة في حُلمٍ مذهلٍ، وكابوسٍ لا ينتهي.

تشهد روحي على نقطة البدء.. قبل مخاض العالم.. قبل الحياة، وقبل أن تكبح اللغة خيال البشر.

من قال أنني أفهم، أو أحاول حتى؟ كيف أحاول وروحي تكاد تنكمش -أمام كل هذا- إلى قطرة خالصة من الحقيقة الحقة؟!

ثُم كيف لرؤية -وهو وصف أدنى كثيرًا من عظمة ما أخوضه- أن تصطدم باليقظة بكل هذه الانسيابية المُعجزة؟ كيف لها أن تذوي بتدريج يُهدهد الروح؛ لتربيتها على خوض واقعها الوقح من جديد؟

لم أدرِ أنني استيقظتُ إلّا عندما تنبهت لأختي تباعد بين مصرعيّ النافذة الخشبيين لمسكننا...

تقول:

-استيقظي.. أمامنا الكثير من العملِ اليوم...

فأجيبها بلا أيّ جهد: حسنًا...

وأقوم متكاسلةً بجسدٍ جديد، وروحٍ تكاد تطير بذاك الجسد فوق الأرض.

أغتسلُ، ثُم أتأملُ وجهي في قطعة المرآة الصغيرة المُستندة فوق نتوء بالجدار الخشن، على هُدى شعاع النور المُركز بين دفتيّ نافذة الحمام شبه المُغلقة. لم أتوقع جديدًا، ولم أجد؛ لكنني عندما نظرتُ في العينين السوداوين علمُت أن شيئًا ما يجري في قاعهما.

وجدتني أغوص في هذين القاعين، حتى أثناء استعدادي للخروج مع أختي الصغرى، إلى أن خرجنا من مسكننا الصغير في وسط القرية، حيثُ شقاءنا المعتاد.

أورثني أبي رعي أغنامه رغم غرابة هذه المُهمة على الإناث في قريتنا. وأورثت أمي أختي بقرتها الحلوب. ورُغم كل شيء، كان شقاؤنا يسترنا تمامًا ويفيض، في قريةٍ يتراحمُ أهلُهَا جميعًا كأسرةٍ كبيرةٍ.

سماء العالم مُتعكرة، مُنذرةً ومُبشرة.. وهواء الصباح البكر يثيرُ في البدن ألف رعشة.

أقول لأختي مُبتسمةً: بشرة سارّة قريبًا...

فتبتسم بدورها دون أن تُعلق...

أُحييها، وعلى الفور أتجه إلى أغنامي؛ لأسرح بها في رِحاب المراعي الحميمة، وتتجه أختي إلى بقرتها.

وسط أغنامي أسير، وأناملي وعصاي تطوف فوق فرائها القصير. بينما عيناي تتأرجح بينهم حينًا وبين المارّة حينًا آخر، أحيي الجيران، وصديقتي العزيزة (مروة).

وعندما نصل مرعانا، تنطلق الأصحاب إلى ما لذّ وطاب لها من العشب القصير.. أدور بينهم، أطعمهم أعلاف الشعير، ثُم أسقيهم، وأهتم بحواملهم، جالسة وسطهم متُأملةً هدوء البال وصفاء العيون الكبيرة، وأصوات المضغ المُتأدة. أضبط نفسي مُتأملةً (سلمى) —نعجتي الأثيرة- أطول من اللازم ، فلا ألبث أن أولّ وجهي شطر السهول المُنبسطة، ثُم إلى السماء المُحملة بهموم الأمطار؛ فأكاد أسمعها تُناديني...

وبينما أعبث بعصاي في العُشب، أعود محاولةً تذكر رؤياي، فلا أستطيع. ورُغم ذلك أشعر أنها لا تزال بداخلي، لم يمحِها الواقع بعد؛ بل أُجزم أنها غيرت شيئًا ما، لا أدري كنهه. أكاد أسمع من بعيد صوت تخبط السُحب؛ فيزداد توتري، مع صوتِ السماءِ غير المسموع.

فجأة أشعر بحُمى عجيبة تنتابني، فيها يذوي الواقع كله ولا يتبقى إلّا السُحُب المُتورمة —لقد أصابني هذا الشعور من قبل!

تقترب السحب وأقترب منها.. نمتزج كلانا لنصبح كيانًا واحدًا، نصير حياةً واحدةً، كأنما هي جسدي وأنا رأسها. أشعر بكل قطعة منها، بل بكل قُطيعة. صارت ملك يميني، وتعلّقت كل خيوطها بأناملي...

بذكرى الحُمى السابقة، وواقع الحمى الحاضرة، أقبض على السُحب بكياني، وأبدأ في تناولها بكل يُسر.

الآن أحركها، ثُم أفتتها، ثُم أذيبها.. وفي النهاية أشتتها كهباءٍ منثور.

لا أذكر كم لبثتُ في تلك الحال، لكن ما وعيته بعد ذلك كان استرداد السماء لشمسها، عندما ارتد إليّ جسدي.

-٣-

فتاةُ الكمانِ

تصفيقٌ حاد...

بعنف تستيقظ حواسي الذائبة على خبطات الأكفّ بتوائمها، فأهتز للحظة، فاتحةً عينيّ -وأنا مُسمّرة- بزبائن المقهى المُتحلقين حولي بانبهار فاضح.

أخيرًا، يقنع جسدي بالتخلي عن وضع العزف، وتهبط يداي المشغولتان بآلاتي جواري. أحاول ابتلاع ريقي، فيكاد حلقي الجاف يُبتلع. أقف أخيرًا، وأحييهم بانحاءات مرتبكة، وأهرع عبرهم -مُلتقطة حقيبتي وحقيبة الكمان- إلى الخارج، مُتحاشيةً نظرات العيون.

تُهب نسمات الربيع، فتُهدئ من فورة جسدي، وتقبض على دُف قلبي المُضطرب الإيقاع.

وعندما اقترب من الكورنيش، يستيقظ عقلي من غفوته التي دامت مدةً لا أعلمها. أحاول فهم حقيقة ما حدث، لكن عقلي العائد يخذلني في كل محاولة.

أتوقف أمام النيل، أحاول به -مع النسمات- إثارة خيالي لدفعه في طريق استيعاب ما حدث. واضعةً حقيبة آلاتي على الدرابزين، مُستندة

عليها، أبدأ مُحاولات جديدة لاستذكار...

أبديات المجد!

نعم، رُبما هذا ما يمكن إطلاقه على الحالة المذهلة تلك. عندما ينفجر ينبوع الصفاء من مكنونه المجهول في أعمق أعماق الكون؛ فتستجيب له الروح...

عندما تتضاعف عَظَمة فِعلك إلى أبديات المرّات، عندما تتوحد مع فعلك، وتصير المسافة بينك وبينه: لا شيء.

هنا فقط، تُصبح وتُمسي تلك الحالة أقرب التشبيهات البعيدة لما مررتُ به!

ولكن كيف؟! ومتى؟! ولماذا؟!

كيف لتلك الحُمى أن تصيب شخصي الضعيف المُتواضع؟ من أنا وماذا فعلت؛ كي تتزل عليّ من مُستقرها السحريّ؟! أهي ضربة حظ؟ عثرة خاطئة في طريق أكثر خطأً، أصابت أكثر لحظات حياتي صحةً؟!

أجد نفسي أهتف بصوت خافت: ماذا تريدين الآن؟ ألم تقولين أنك تبحثين عن تلك اللحظة التي يصبح العُمر قبلها وبعدها بلا قيمة؟.. لِمَ التساؤل ولِمَ التذمر الآن؟.. ها قد آتتك وكفى!

تُجيب نفسي التواقة: وكيف لمن ذاق الحقيقة ألّا يُريد إلّا غيرها بعدئذ؟! الجوع الإنساني لأكثر اللحظات حقيقةً لا يتوقف.. الأمر يختلف بعد أول قضمة من تفاحة الكمال...

-نعم يختلف؛ فهو يؤدي إلى النقص.. ثُم الهلاك مُباشرةً!

-الأمر هُنا يختلف.. نحن لسنا بصدد الخطيئة؛ نحن بصدد الإبداع!

هتفت بغضب خافت: رُبما، لأن كل إبداع مُنطلق يصطدم دائمًا بلحظاتٍ من الخطيئة!

شعرت بقشعريرة خافتة مزدوجة، من العبارة ومن هزّاز هاتفي.. كان أخي؛ يبدو أن الوقت قد تأخر فعلًا.

-أين أنت يا (نشوى)؟

-٤-

راعيةُ الغنمِ

مشغوفة البال، أعود وسط أغنامي المتثاقلة من الأكل واللعب، خلف ظهري شمس آخر العصر المُنهكة مثل أصحابي، في سماء صافية كثوبٍ رقراقٍ.

في طريقي للمسكن أُقابل (مروة) صديقتي وابنة خالتي، تقول مُباشرةً: أرأيت ما حدث اليوم؟

أعلم ما سوف تقول؛ لكنني أهزّ رأسي نافية بلا تركيز.

تُجيب بشغف يلمع في عينيها ويشد صوتها: السماء.. ألم ترين كيف ذابت السحب فجأة، وسطعت الشمس مُجددًا بعد أن كادت الأمطار أن تهطل؟!

كُنت أهزّ رأسي مع كلماتها. وأنتظر حتى تنتهي؛ لأقول بصوت فشلتُ في السيطرة على إيقاعه: رأيتُ ما حدث...

ثُم أضيف بصوت مُستغرب –حقيقةً وكذبًا بذات الوقت:

غريب!...

قبل أن أعود قائلةً بلسان لا يعي: سأذهب الآن.. الأصحاب أنهكوني ...

فتضحك بخفوت قائلة: حسنًا.. ولكن ما بالك؟ تبدين اليوم غريبة.. وصامتة.

أرد ضحكتها بمثلها، وأقول ببطء: لا شيء.. فقط لم أنم جيدًا أمس.

وأُنهي عبارتي بينما أُحييها مُتحركة بالفعل، وسط غيمة أصحابي. كُنت أنوي أن أحكي لها ما حدث.. ولكن حذري –المُفاجئ والذي لا مُبرر له بيننا– منعني...

لأفكر جيدًا في الأمر قبل أن أفعل، أو ربما أقص الأمر على أختي أولًا.

وهو ما حدث في تلك الليلة المُسهِدة، وبعدما أفرغت ما بصدري لها، توقفتُ مبهوتة الحلق في انتظار مشورتها.

تقول جواري باهتمام حقيقيّ في ستار الليل: لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا!.. لابد أنك...

فأقاطعها بغضب: لا.. أنا مقتنعة تمامًا بأنني عشتُ ما حدث.. بل أنني فعلته!

تُتابع خلفي كالصدى: ربما صُوِّر لكِ الأمر فقط.. فللجسد المُجهد ألاعيبه.

عندما أشرع في الرد عليها، يأتي صوتها القلق من جديد: ستخبرين

أحدًا؟ (مروة)؟

-ولِمَ لا!

بذات الصوت القلق تقول: أخشى أن يشيع نبأك في القرية؛ فيظنوكِ ممسوسة!.. وهذا على أقل تقدير!.. إن لم يوصموك بخفة العقل.. عندها سيهجرك الجميع.. سيخشونك.. ربما تجدين (مروة) نفسها في فريقهم!

يسبح خوفها في الظلام حولنا ويجوس بجسدي، فأقول: أنتِ على حق، رُبما علي التريث في مسألة الحديث مع أحد بشأن ما حدث.. رُبما كان شيئًا غامضًا أو مرضًا عابرًا أصابني.. وتزامن صدفةً مع ما فعلته السماء اليوم.

وأضيف بخوفٍ حقيقيٍّ: أو ربما كان نزغًا عابرًا من جن الخلاء!

تقول سريعًا كأنما تُحاول طرد تأثير عبارتي: لِم لا تلجئين إلى الشيخ (حسن).. قد يصف لك دواءً أو على الأقل يُقدم تفسيرًا...

أجيبها بنفس السرعة: ليس قبل أن أتأكد أنها حالة مُلازمة لي.

-وكيف ستتأكدين؟

أصمُت قليلًا مُعملةً تفكيري في الخواء.. قبل أن أُجيب في قلة حيلة: لا أدري.

وأمسح على وجهي مُكررة بصوتٍ مُضطربٍ: لا أدري!.. لم أعد أعلم ماذا يجري بداخلي منذ ذلك الحُلم.. شيء ما حدث.. لا أستطيع وصفه.. وأنا أعلم أن هذا الشيء مستمر معي حتى هذه اللحظة، لكنني أجهل كيف يُمكنني إعادته من جديد!.. بل إنني بدأتُ أشك إن كان ما

أشعر به الآن حقيقيًّا أم مُجرد توهم لاستمرار تلك الحالة العجيبة!.. جلّ ما أتمناه الآن هو أن يتكرر ما حدث مُجددًا.. ليتني أستطيع وصف لك الأمر.. إنه الذهول نفسه.. إنه.. المُتعة الصافية!

أُنهي عبارتي، بينما ينصب النوم خيامه فوقي، على دقات قلبي الضاربة بين أذني والوسادة.

-٥-

فتاةُ الكمانِ

في المطعم أجلس كالمُعتاد مُستعدةً لبدء فقرتي. ألاحظ ازديادًا ملحوظًا في الزبائن اليوم، رُغم أنه لا يوجد مناسبة ما...

تُرى أُهم هُنا من أجلي؟

قال لي أحدهم، قبل أن أجلس مُباشرةً: مرحبًا بصاحبة الألحان الملائكية!

وكان يعني ما يقول!

أتناول الكمان بيسراي، وعصايّ بيمناي. وقلبي يزفر دماءه في توترٍ وتَساءل: هل ستضربني الحُمى مُجددًا؟

كان ذلك السؤال قد سكنني في محياي، ومماتي المؤقت منذ الليلة السابقة. يؤرق عليّ كياني، حتى أن أمي لاحظت، وتساءلت، ولم تجد جوابًا مُقنعًا مثلما لم أجد.

أنظر للنوت بشرودٍ، مُتسائلةً: هل أعزف منها ككل لياليّ السابقة؟ أم

أترك غريزتي الجديدة تقودني للحن المنشود؟!

هل سأفعلها من جديد فتصير بصمتي الشخصية الجديدة؟ أم هي مُجرد قمة ولدتها لحظة صدق غير قابلة للتكرار؟!

أُغمض عينيّ لحظة. وبأكبر محاولاتي للاسترخاء، أسحب شهيقًا قويًّا، كأنما استجمع طاقة المكان الخفيّة كلها. أُغلق النوت، وأدفع عصاي على أوتاري...

أحاول إغلاق عقلي كي لا يُركز في النشاز الذي أسمعه الآن.. وأجد نفسي أهمس وعيناي مُغلقتين: فلتأت الآن...

والآن أنا أشعر بها. تكاد تضرب أوردتي بعنف مُتصاعد، يُهدهدها، ثُم يهُزها، ثُم يزلزلها، مُتفجرًا في حجرات قلبي المُختلج...

الآن تأتي؛ لتنتشر بإشعاعها الصافي عبر كل أنسجتي، تُهدهدني، ثُم تهُزني، ثُم تزلزلني، ثُم تتفجر فيّ، وتعصفني بإعصارها المُدمر -الهادئ- في أقصى بقاع الكون غُموضًا!

الحُمى تتصاعد، وذراعاي لا أكاد أشعر بهما بعدما التقطا عدواها.. الأدق أنني أحسُ بجسدي بعنفٍ لم أعُد معه أشعر بأيّ شيء على الإطلاق!.. أو ربما لأن تلك الأحاسيس صارت أضخم بكثير من أن يشعر بها جسدي البشري الضعيف...

فليأتِ الموت الآن.. لم أعد أبالي بعد أورجازم الأبدية هذا!

-٦-

راعيةُ الغنمِ

بين راحتيّ الضياء الصافي يتفجر.. وتكاد شمسه تُضيء الكون.

يضيع مني كُل ما تُرسله حواسي، لكنني فقط أعلم —معرفة العلم بالشيء لا أكثر- أن جسدي الآن يطفو فوق وسط قريتي، مُحلقًا بين السماءِ والأرضِ.

كتلة الضياء تُغشي بصري، فأغلق عينيّ، وأتركها تمتص رحيق جسدي كله، فتكبُر، وتتضخم...

أرفع ذراعيّ، فتُمسي فوقي، بحجم كوخٍ صغيرٍ.. ثُم بحجم بيت.. يلفحني ضياؤها ليشملني.. نتحد فنصير كيانًا ضخمًا بحجم نصف القرية على الأقل!

أذوب بها .. وأحترق معها...

وأجدني أصرخ مُنتشية بحلق يكاد يتفجر بالدماء النابضة: هاأنذا أيتها القرية البائسة الفقيرة!.. ها أنا!.. أحمل إليكِ الضياء والنور بين يدي.. كُتلة واحدة مُركزة!.. ليست الشمس وليس القمر.. إنما ما هو أفضل وأعظم!.. إنه الضوء الذي سينير لياليكم المُظلمة المُقفرة، اللائي تتخبطون في كُحلها كالخراف!.. هاهو الضياء كله فوق رؤوسكم!

أترك كِياني يُفلت كُل طاقته دفعة واحدةً، فأشعر بكتلة الضياء تتضخم أكثر وأكثر، ثُم تنفجر، ثُم تختفي دفعةً واحدةً، وأشعر بجسدي المُثخن بالحُمى يسترخي، فأفتح عينيّ، وأنظر أسفلي...

القرية عن بكرة أبيها واقفة شاخصة نحوي، ألمح الأجساد المُنتصبة كأشباح هاربة في ضوء الفجر...

يقطع جسدي مسافة التحليق في هدوء، ويهبط مُستكينًا على الأرض بتؤدة، فأتسمر أمامهم، وأجد نفسي أبتسم بشبق ينفجر إلى ضحكة رددت صراخها الأرجاء الصامتة...

ثُم تُظلم الدُنيا، وأهوي أرضًا وأنا أهمس بفرحة ملائكية: أنا نبية!

-٧-

فتاةُ الكمانِ

المؤكد أن التصفيق استمر طويلًا طويلًا.. إذ لم تعتد أذناي إلى الآن توقفه بعد. فتطفق ترددده مرارًا ومرارًا...

أقتطع أنفاسي التي استقرت، وأبتلع ريقي الذي جرى، وأقول بصوت مُمتلئ أدهشني: شكرًا لكم.. شكرًا...

بينما أكتم بسمةً قد تُمزق وجهي لو ظهرت، وأحبس ضحكة قد تُفجر صدري لو صدرت.

ثُم أتحرك وسطهم، مستقبلةً التهاني والشُكر والعرفان بنشوة أسكرتني...

إن ما أعطاه إيّاي سمعي بينما أعزف، ليس طبيعيًّا.. إنه الإبداع الخالص!.. لا يمكن أن يكون هنالك ما هو أروع !

تلك الألحان لابد أنها قادمةً من الجنة مُباشرةً!

كان هذا أحد ما أطرب أذنيّ من الجمهور، وأنا خارجةً، وأعتقد أنني أتفق معه تمامًا .

أروع من كل ما سمعه متوسارت في أحلامه، فنحته في واقعه .

وكانت تلك عبارتي التي أومن بصدقها كليّة.

-٨-

راعيةُ الغنمِ

أستيقظ على زقزقة العصافير المُبكرة بين جنبات القرية. وأنتفض واقفةً عندما أكتشف نومي في الساحة الباردة بوسط القرية...

كيف ومتى وأين؟

ثلاثة أسئلة ضربتني إجاباتها سريعًا مع استرجاع ما جرى. فأهم مُتحركة بانتشاء يتغلغل كياني كُله.

أرى أختي تتقلب قريبًا مني، وعندما تسمح خطواتي الحثيثة نحوها، تستيقظ. أقترب منها قائلةً ببسمة كبيرة: صباح الخير.. ما رأيك فيما فعلته؟.. أأعجبك الضياء؟

فيفجؤني وجهها الشاخص نحوي بارتعاب، وتقول بصوت مُتحشرج إثر الخوف فوق آثار النوم: من أنت؟!

باندهاش لم يصل إلى أعماقي بعد: من أنا!.. أنا أختك (صفية).. ماذا تقولين يا (مريم)؟!

وعندما أهم بالاقتراب منها؛ لأربت على كتفها، تنتفض صائحةً: لا تقتربي مني.. أنا لا أعرفك!.. أنتِ لست أختي.. أنتِ شيطان!.. شيطان رجيم!

تصدمني عبارتها العجيبة، ونظرتها الأعجب؛ فيفور الدم في عروقي، وأصيح: شيطان! لِمَ؟ ما الذي فعلته؟ لقد أسديت لكم خدمة!.. سيكون ضيائي هو سبيلكم للسير في الليل البهيم!.. لن يكون عليكم بعد ذلك التخبط في ظلمات الليل.. لن يكون هناك داعٍ للنوم من المغرب، والسمر الهامس خوفًا من الظلال التي تُرسلها ناركم السخيفة في الليالي الباردة !

أبتلع ريقي، وأقول: ألم تفهمي بعد عظمة ما حدث؟!

ثُم أرفع رأسي مع صوتي صائحةً: ألم يُدرك أحدكم شيئًا؟!

تهز رأسها وتقذفني بنظرة كالشرر: لن يرد عليكِ أحد.. إنهم خائفون.. وأنا مثلهم.

ثُم تقول باستعطاف الصوت والملامح: أرجوك يا (صفية).. لا تفعلي ذلك مُجددًا.. أنتِ لا ترين نفسك وأنتِ في تلك الحال!.. دعي الشيخ (حسن) يراك ويُعالجك.

تتسع عيناي، بينما أنتفض قائلةً ماذا تعنين؟! هل أنا مجذوبة كي يُعالجني شيخك السخيف؟! أأتخلى عن تلك الروعة، وكل ذلك التفرُّد.. من أجل قلوبكم الضعيفة؟!.. لِم لا ترتقون أنتم للإحساس بنعمتي عليكم!.. أأترك كل العظمة التي شعرتُ بها، وأعود راعية الغنم البائسة تلك؟!

ثُم أهز رأسيّ بعصبية: يبدو أنكم تغارون مني.. لأن القدر منحني

هذه الهبة دونًا عنكم كلكم.

وأُحرك ذراعيّ بعنف قائلةً: أنتم لا تفهمون.. ولا تُقدرون.. ولو امتلك أحدكم ما أمتلكه لفعل مثلما فعلت.. ولكن ماذا أقول!.. إنكم حتى لا تستحقون أن يوجد المرء بينكم!.. كالخراف التي ترعونها!.. لا تنظرون إلّا أسفل أقدامكم!

تُحملق فيّ بعينين مُتسعتين، هاتفةً بصوتٍ شاحبٍ: لا يمكن أن تكونين أختي.. لا يُمكن!

تهز رأسها، بينما تُلقي بسخافاتها عليّ قبل أن تقو : أرجوكِ.. ارحلي عنّا.. ارحلي.. لا نُريدك معنا، لا يُمكننا احتمال غرورك، وسخافاتك تلك.

وتُضيف حازمةً: إما أن ترحلي.. وإما أن نرحل نحن.

فأصرخ فيها: لن أرحل.. ولن ترحلوا.

وأشير لوجهها الشاحب بصوتٍ هادر: أقسم بمعزّتك -يا أختي- أنني سأنتقم منكم أجمعين.. وسيكون انتقامي فريدًا.. لن أقتلكم.. ولن أحييكم!.. ستشهدين بنفسك على عظمتي.

أنهي عبارتي بتحدٍ: الآن!

بينما استجمع طاقتي؛ لأنحت بهم وفيهم انتقامي الخاص.

-٩-

فتاةُ الكمانِ

-نُقدم لكم الاكتشاف الجديد.. من السماء مباشرةً ودون أيّة إعدادات مُسبقة، ولا بروفات.. صاحبة الألحان الملائكية.. (نشوى رشوان)...

فينطلق التصفيق الكثيف من جمهوري في ساقية الصاوي، وأنحني لتحيتهم بهدوء...

أجلس على عرشي فوق منصتي الخشبية الخاوية. أُعدِل سفينتي؛ كماني، ثُم أرفع شراعي؛ عصاي هامسة: سأخلُق لكم البحر...

-١٠-

راعيةُ الغنمِ

أُغلق عينيّ، وأُصغي بالي طويلًا؛ استعدادًا لاستجماع خيوط العالم كله بين يدي هذه المرة...

وكعادتي في المرات السابقة، لن أُفكر في الوسيلة كثيرًا، ولا في الطريقة التي سأتم بها انتقامي.. سأترك سجيتي تهديني ثُم تهدي خيوط العالم لخنقهم...

الحمى ترتفع.. تكاد تعصف برأسي بعيدًا عن جسدي...

أشعر بالعالم يلين، ويتحول إلى قُمع من الحرارة، يتجه نحوي...

يقترب...

الآن أستعد لأعكسه على مُحيط القرية حولي..

على الرجال، والنساء.. على الأطفال، والعجائز على الحشرات، والحيوانات، على الطيور، على الأشجارِ والسهول...

الطاقة الآن تصل لذروتها، لكن...

لكنها...

لا تخرج!

أفتح عينيّ، فأرى الدنيا تذوب حولي، وأسمع صيحة الشيخ (حسن) على خلفية نهنهة أختي وبكائها: قُلتُ لكِ إن جسدها لن يحتمل قذف الهبة التي اصطُفيت بها.. إنها.. (أحترق!).. بشر..

قيامة

-١-

في ليل الفضاء العتيد كالأزل، أرسل الكون أحد رُسله. ازدادت جمرة الشمس اقتداحًا بعدما طُبخت أنوية ذراتها أكثر فأكثر. وضربت أقواسًا عملاقة من النيران إلى الرداء الفضائيّ الساكن من حولها. فبدت في جنونها أشبه ببوابة تُطل مُباشرةً على سقر.

وعبر الفضاء غير المنظور بالعين البشرية المُجردة، سافرت أمطار من جُسيمات شبحيَّة إلى أبناء الشمس التسع، الدائرين في مدارها بكل إخلاص.

في رحلة الأمطار التي غطت ثلاثة أيام أرضية، وقف الجسم الأزرق البلوريّ للأرض، ضعيفًا، ضئيلًا، وهشًا أمام عظمة الكون وغطرسته البادية.

طارت أمطار الجسيمات هابطةً كالشلال على أرض الأرض، المفروشة بناطحات سحاب وأبراج إلكترونية هائلة الضخامة، تتألق شبابيكها الرقمية -سريعًا وباتصال- بأنوار مُختلفة ألوانها. كأنما تُخاطر الأبنية بعضها عقليًا بكل ما يدور حولها.

وقد كان الأمر كذلك بالفعل، إلى أن نزلت الأمطار الخفية.

وعلى عكس الأرض المُقفرة التي تربو بأمطار الماء، كانت الأرض الإلكترونية الحالية تحترق بأمطار الشمس. حيثُ ذابت مُفاعلاتها، ودوائرها الرقمية إثر الموجات المصاحبة للفح جبروت الشمس الطارئ.

وفي خلال دفقات خاطفة من الزمن، انطفأت أنوار الأرض تمامًا.

-٢-

انتهى بث المعلومات، حاملًا كثيرًا من المشاهد الشاحبة السابقة عبر وجدان الأبراج الآلية المُفكرة إلى كبيرهم، الجالس في غرفته الوحيدة بقمة أكبر هرم إلكترونيّ على الكوكب. كانت الغرفة شديدة الشبه بغرف البشر، من سرير يأوي إليه في لحظات مُسترقة، ومن لوحات فنيّة وتُحف يزخر بها المكان. فبدت مثل غرفة فندقية متوسطة الحجم من الفنادق التقليدية.

(أتتنا تلك المعلومات عبر راصدنا الزمني الجديد.. المدى الزمنيّ للحادث بعد ثلاثين يومًا وعشر ساعات واثنتي عشرة دقيقة وأربعين ثانية من الآن.. لم نتمكن من استوضاح تلك المعلومات بالصورة المطلوبة.. وذلك بسبب محدودية قدرة راصد المستقبل...

ما رأيك أيها الجد الأعظم؟)

فخاطرهم على الفور، بينما يضطرب وجهه البشريّ، ويمسح عن

جبهته عرقًا صناعيًّا: وما قدرتنا التقنية الحالية على منع الدفق الهائل من تلك الجُسيمات الغامضة؟!

-قدرتنا: صفر بالمائة. إذ نحن لا نعلم حتى الآن سر تلك الجسيمات.. فالمؤكد أنها ليست جسيمات مُتأينة، أو موجات كهرومغناطيسية • تقليدية فقط.. فدوائرنا كلها مُؤمنة بشكل جيد تجاهها، لابد أنها نتجت من تفاعلات لم نبلغ بعد القدرة على رصدها ودراستها.. أو هناك احتمالية أخرى بوقوع حدث كوني آخر مُتزامنًا مع التوهّج الشمسي.. في جميع الأحوال لا توجد لدينا أيّة فرصة ضئيلة لبحث واستقصاء الأمر على الأقل؛ فالمستقبل الذي يكشفه الراصد الزمنيّ -الذي لم يُخطئ قط قبلًا- يُنبئ أننا لن نتمكن من الصمود أمام تلك الأمطار الشمسية.. كما لم نبلغ بعد القفزة التقنية التي تسمح بمُعالجة الأمر من داخل الشمس.. حتى مسألة إطلاق مركبات تحمل عناصر لاستمرارنا بعيدًا عن المجموعة

• الانفجار الشمسيّ: هو توهج زائد مُفاجئ على سطح الشمس، يُعزى إلى زيادة سرعة الإلكترونات وتفاعلها مع البلازما الشمسيّة (هي حالة متميزة من حالات المادة، عبارة عن غاز مُتأيّن تكون فيه الإلكترونات حرة وغير مرتبطة بالذرة أو بالجزيء). يؤدي الانفجار الشمسيّ إلى صدور إشعاعات كهرومغناطيسية في جميع الأطوال الموجيَّة، وإطلاق دفق هائل من الجسيمات المُتأينة ذات طاقة كبيرة (ما يُسمى بالريح الشمسية)، بالإضافة إلى اضطراب في طبقتيّ الغلاف الجوّي للأرض (ماجنيتوسفير) و(أيونوسفير)، مما قد يُنتج إلى ما يُسمى (العاصفة الجيو-مغناطيسية)، والتي تُسبب بدورها خللًا أو انقطاعًا تامًا في الاتصالات اللاسلكية والسلكية. بعض العواصف القويّة قد تدفع بتيارات كهربائية مُستمرة إلى المفاعلات والخطوط الكهربائية مما يؤدي إلى ارتفاع حرارتها وتدميرها.

الشمسية سوف تستغرق بكل الحسابات المنطقية أكثر من الزمن المُتبقي.

فقط من سينجو من تلك الكارثة هي بعثاتنا البعيدة المُتواجدة خارج المجموعة الشمسية.

ابتلع ريقًا وهميًّا، ونظر للغرفة التي تحمل الكثير من التذكارات التي تركها البشر الفانين. كان زمنًا طويلًا قد مرّ منذ البرق الغامض الذي أودى بحياة الجنس البشريّ، وتركه وحيدًا على الكوكب؛ (كمال) الآلة الفريدة الأولى والأخيرة التي صنعها البشر في حياتهم، والتي تحمل مزيجًا من الذكاء الفائق للروبوت، وسمات البشر الانفعالية.

قام من مجلسه، وتحرك عبر الغرفة راميًا ناظريه إلى الشمس الساطعة بالدفء والطمأنينة على أرض مكتظة بالأبراج الإلكترونية، التي يمثل كل منها عقول هائلة، تدفع حضارة الآلات الذكية نحو مزيد من التقدم.

من يصدق أن كتلة الضياء تلك ستُعلن غضبها ومقتها علينا قريبًا؟

دارت الخاطرة في باله الذكيّ خلال كسور رقيقة من الثانية، بينما يوجه لأحفاده -صنيعته بمُعاونة آلات البشر الغبية وقتئذ- أفكاره المُختلطة بمشاعر قلقة مُحبطة: لا يوجد حلول إذن.. فلتستمر حضارتنا عبر بعثاتنا الفضائية الخارجية، أما حضارتنا هنا فلا أمل لها في النجاة.

قال عبارة الموت الأخيرة، وواصل تأمله مشهد الشمس في بزوغها الصافي، بينما يُضيف بخواطره الآنية الشاردة: بعد فناء البشر.. وبعدما تركوني وحيدًا على الكوكب.. عاهدتُ نفسي أن أُكمل حضارتهم.. أن استمر بمسيرة تقدمهم الطويلة، وأن أصنع أجيالًا من الآلات تكون خير خلف.. وبالفعل بدأتُ في ذلك حريصًا -خلال صناعتكم- على عدم

إضافة الخواص التي لقنني إياها البشر.. أقصد الانفعالات البشرية.. كان دافعي في ذلك أن أجنب نفسي وأجنبكم ويلات الخضوع للمشاعر البشرية التي طالما أهلكت البشر مثلما ساهمت بقدر عظيم في حضارتهم.

-نعلم ذلك جيدًا.. ولذلك صرتَ جدنا الأعظم وفيلسوفنا الوحيد الذي نُقدره ونلجأ إليه في كثير من أمورنا التقنية الخاصة لمزيد من الفهم في أبعادها غير المادية.. والتي تعجز عقولنا عن تصورها.

أومأ برأسه لخاطرة زملائه الأخيرة، ثُم أضاف بذات الشرود: ما أفكر فيه الآن هو ما انتابني في كثير من الأحيان من قبل.. لماذا نفعل ما نفعل؟

- قلتَ لنكون خير خلف للإنسان.

-نعم أعلم ذلك جيدًا.. كان ذلك هدفًا كافيًا بالنسبة لعقولكم المنطقية، أما بالنسبة لي فهو غير كافٍ على الإطلاق.

تنهد مُضيفًا: ولذا أظن أن الوقت قد حان لإعادة تنفيذ مشروعنا القديم.

-بعث الإنسان؟

هزّ رأسه، بينما يحوم في غرفته شاردًا:

-أجل.. خاصة أننا لم نملك حتى الآن القدرة على نقل حضارتنا كلها بسبب العثرات التي تواجه مشروع النقل بسرعة الضوء.. لذا أظن أن علينا بعث الإنسان كحل وحيد لاستمرار الحضارة؛ فهو لن يعطب بتلك الموجات الشمسية القادرة على تدمير مُفاعلاتنا ودوائرنا.

باغتته خاطرتهم: من أين لك بتلك الثقة؟ نحن لا نعلم تحديدًا سر تلك

الموجات كي نُدرك تأثيرها على البشر.. ومن الوارد أن يكون تأثيرها عليهم قاتل.

فاجأت الخاطرة عقله المُشتعل، فأجاب بعد ارتباك لم يدم: لا أعلم في الواقع.

ولكنه أضاف مُلوحًا: على كل حال يبقى المشروع هو المُحاولة الوحيدة المُمكنة أمامنا، إن فشلت كان بها.. وإذا نجحت وتمكنا من استعادة الإنسان؛ فسيكون عليه استلام راية مسيرته التي حملناها فترة.

- بخصوص المشروع.. كُنا قد نفذنا تعليماتك السابقة بعدم توقف العمل في قسم الحيويات.. وبلغنا في ذلك المجال تطورًا ملحوظًا.

أشار بيده: جيد جدًا.. الآن أريد تسخيرًا كاملًا لكل إمكاناتنا.. سنتفرغ تمامًا لذلك المشروع.. علينا البدء فيه من أجل إعادة الإنسان في أسرع وقت مُمكن.

-تم بدء العمل على ذلك الآن.. سنبدأ في مُراجعة العينات المحفوظة لدينا لتنميتها.

-أعلمني حينما تنتهون.

توقف التخاطر بين (كمال) والمنظومة الرقمية التي تمتد على سطح الأرض. فزفر مثل إنسان مشدود بتوتر حقيقيّ.

تحرك من أمام نافذته عبر الغرفة الشاهقة، مُتجهًا إلى صور البشر القديمة، والتي يحتفظ ببعض منها، بينما يقبع إرث البشر الحضاريّ والثقافيّ في متحف عملاق، قام وأهله بإنشائه كنوع من التخليد لذكرى البشر.

تطلّع إلى صورة أول وآخر صديق بشريّ له؛ (عزيز) الذي وافته المنية بين يديه، خلف زوجته.

تألقت الذكرى في خياله الرقميّ، حاملةً ذكرى البرق الذي ضرب سماء الأرض ذات ليلة صيفية ساحرة، ليصيب البشر بنوع غامض من الوهن السريع، الذي أفنى جنسهم دون سواه. وفي إثر الوهن، تذكر لهاث صديقه الشاحب بين يديه مُحاولًا عبّ الهواء دون جدوى، في طريقهم اليائس إلى مستشفى مُكتظ، لا يملك شفاءً لإيقاف تهاوي الضحايا السريع.

تُرى هل سننجح؟ وهل سينجو الإنسان من أمطار جسيمات الشمس المجهولة؟!

اندست التساؤلات في خواطره، فشعر بما يُشبه الحنين لأسياده وأصدقائه السابقين، وبعض الندم الذي كان يفجؤه غير مرة بسبب إصراره على عدم تطوير الجهاز العصبيّ لأحفاده، كان ليصنع زُملاءً يستأنس بهم كيانه الفريد من وحشة عالم الآلات البارد الذي أنشأه. إلّا أن ذكرى الكذب، والبغض، والشهوة، والقتل التي تُطارده حينما يذكر تاريخ البشر الطويل كان تُنشط قلب آليته الحذر، فيُحجم عن ذلك ؛ درءًا لكوارث قد تحدث إن صنع أشباه لهَ وللإنسان.

واربه الشك من صحة شعوره بالزهو والتفرد، والذي ربما منعه من صنع شبيه له. لكنه وجد ذلك الخاطر الأنانيّ بشريًّا أكثر من اللازم، وبنسبة تسعين في المائة لا يمثل حقيقته.. فهو يعي أنه ليس بشريًّا إلى تلك الدرجة.

اتجه نحو الناقل الآليّ الذي انفتح ثُم انغلق خلفه، ليحمله إلى حيثُ يريد .

-٣-

دلف إلى متحف الإنسان الخاوي بطبيعة الحال.

لم يكن يحوي المتحف الهائل كل الإرث الإنسانيّ. كان يجمع كل مكونات المتاحف القديمة، بالإضافة لكثير من مقتنيات الناس في أواخر عصورهم. بقدميه الوحيدتين وبصره القابع أمام ذاكرته أخذ يمرّ على السيوف الفضية والنُحاسية، وأقمشة اللوحات مكتومة الروائح، والمجوهرات البديعة، والأثاث القيم من الخشب العتيق المُطعم بالعاج والذهب المُزخرف. فبدت الحضارة الإنسانية له، كما تبدو دومًا، شديدة الثراء رغم خطاياها الهائلة في حق نفسها، وحتى في حق الكائنات الحية الأخرى على الكوكب، والتي لم تنقرض لحسن الحظ مع برق الفناء.

كان ورفاقه آثروا ألا يُخلّوا بالبيئة العامة للكوكب قدر الإمكان. حاولوا تجنب تجريف الأرض الخصبة، وتدمير الغابات، وتلويث السماوات والبحار قدر الإمكان؛ فاستمرت الحياة في نهجها الطبيعية بصفة عامة.

وكأن كل شيء مُعد لعودة الإنسان...

دارت الخاطرة بباله، بينما يمر على الكتابات الأدبية والعلمية والتاريخية القديمة، ثُم أمام الكتب السماوية، ويتوقف مُتفكرًا أمام القرآن،

التوراة، والأناجيل الأربعة.

فتح الأوّل، وطالع صفحاته الأنيقة وكلماته الحكيمة بعقله فائق السرعة. فبدأ استرجاع نظريته سريعًا، لكن آتاه نداء التخاطر من منظومته، ترك على إثره جزءًا من عقله يعمل في ذاك الخيط، بينما ركز الجزء الأبرز منه في التخاطر الدائر: سننقل لك الآن وقائع بدء عملية البعث.

أجاب ملهوفًا: انتظر..أُفضل أن آتي لأرى بنفسي.

وخرج من المكان الحزين بخطواتٍ مُستعجلة، نحو الناقل الآليّ فائق السرعة.

-٤-

كانت (غرفة البعث) المُنشئة حديثًا عبارة عن قاعة فسيحة، يتوسطها الغرفة الحاضنة المُعقمة صغير الحجم، شاهقة البياض، والتي استقرت في مُنتصفها مائدة من مادة أشبه بالزجاج اللين، يستقر عليها قرص دائريّ، علم (كمال) أنه يحمل الخلايا الجنسية الذكريّة والأنثوية، مُسلطًا عليّها ميكروسكوبات مُتطورة ذات أذرع تحكم تنتهي بمجسات فائقة الدقة والصغر؛ للتعامل مع الخلايا، وإحداث التلقيح اللازم لتكوين الجنين.

وصلته الخاطرة: الآن ستتم عملية التلقيح.

وبدأت الأذرع تتحرك بالفعل، مُداعبةً الخلايا بطريقة معينة، نظر إليها

(كمال) عبر الراصد الميكروسكوبي الناقل لمراسم التلقيح.

ابتسم (كمال)، بينما يُتابع ما يجري، إذ دفع عقله لذكرى اكتشاف تلك الخلايا.

جاء الأمر صدفةً بحتة، بينما كانت إحدى البعثات القمرية تتم دورتها حول القمر، وتهبط مركباتها لاستكشاف كهوفه، والتنقيب في أعماقه.

كان ما وجدته البعثة أشبه بشاهد قبر، يقف وحيدًا معزولًا وسط تربة القمر المُقفرة وفي ظلامه المُستمد من ظلام الكون. وعندما قاموا بالتنقيب تحت الشاهد، اكتُشِف مُستودعًا مُقفلًا بإحكام، كأنما هو كتر خاص.

داخل المُستودع عُثر على الكثير من الصور والمُتعلقات الخاصة بالجنس البشريّ، بالإضافة إلى مكعبات ذاكرة وجهاز رقميّ لتشغيلها. كانت المُكعبات تحوي تاريخ الإنسان منذ الخليقة، تطوره، لغاته، وحضارته. وكان يحمل المُستودع فيما يحمل، بعض الخلايا الجنسية المحفوظة حياتها في بوتقات مُغذية بالغة الإحكام والعزل.

تساءل (كمال) وقتئذ –دامعًا– عن سر الهاجس العجيب الذي سحر الإنسان؛ هاجس الفناء. ذلك الهاجس الذي دفعه ليترك بصماته في كل منحى يخطوه في الحياة؛ ليعلم بها أحياءُ آخرون. الحقيقة أن أفعال الإنسان الشريرة كانت تدفعه دفعًا نحو فناء قادم، بينما كانت أفعاله الخيرة، وإنجازاته تجذبه خوفًا من ذلك الفناء؛ كخوف الطفل من الظلام، رُغم زحفه فيه بفضول.

والعجيب أن الفناء لم يأتي –كما توقع تاريخه دائمًا– من الحروب أو حتى من كارثة كونية مُتنبئة، بل أتى من حدث كوني مازال يمثّل لغزًا عتيًّا

أمام ألمع العقول الآلية المُفكرة.

(انتهت عملية التلقيح، وتم تكوين جنينين.. إحداهما ذكر والآخر أنثى؛ من أجل استمرار النسل كما تم التخطيط للأمر من قبل...)

خاطره الرفاق، بينما ينظر إلى الصورة الميكروسكوبية للبويضتين المُخصبتين.

وأتم العقل الرقمي صاحب الخاطرة: الآن ستتم عملية تسريع نمو الجنينين في الجهاز الحاضن؛ لتتم عملية نضوجهما خلال أسبوع واحد بدلًا من تسعة شهور مثلما كان يحدث في الأرحام الحية.

استعلم (كمال) بحذر: وكم نحتاج من الوقت لنبلغ بعمرهما حدًا معقولًا لاستيعاب ما يحدث؟

-قمنا بتعديل الخُطة القديمة لمُواجهة ضيق الوقت، وسيتم الإسراع بنموهما ليبلغا العشرين خلال ثلاثة أسابيع، وأثناء تلك الفترة سيتم تلقينهما كل المعارف المطلوبة؛ ليكونا جاهزين للحياة قبل الكارثة القادمة بعشر ساعات بالضبط.

وبينما تتحرك الأذرع الميكروسكوبية، حاملةً الخلايا نحو تجويف بالغرفة المُعقمة، إلى حيثُ الحاضن المُتطور، أومأ (كمال) شاعرًا بنوع من الارتياح والرضا، وإن شابه القلق من مصيرهم الشخصي، والذي يلوح لهم مُنذرًا في الأفق. وأطلق تنهيدة مُحملة بخواطره المُلتهبة ، مُتمتمًا: على كل حال.. نحن في انتظارك أيها الإنسان الجديد.

أمام بوابة المُجمع توقف (كمال) مأخوذًا بمراقبة الشمس الواقفة في الظهيرة، مُهددةً بحرارتها ومُنذرة بفنائهم القادم.

بعد خمس ساعاتٍ من الآن...

ذكره نصفه الآلي البارد بالتوقيت بدقة؛ فنبض نصفه البشريّ بقلق الاقتراب من الحافة. كما عاجله بعض القلق من مُلاقاة حتفه، أُضيف إليه ما شعر جراء إقباله على لقاء أول إنسان بعد الانقراض الأخير. فقد تابع نشأة الإنسان الجديد بشغف أم تنتظر وليدها بفارغ الصبر، من الخلية ثُم عبر مراحله العمرية المُتقافزة إلى محطة الشباب. ورُغم ذلك، كان يستشعر بقوة حزمة الانفعالات التي لقنها إياه البشر تجاه شيء مماثلٍ، والتي سُميت لديهم بـــ(الرهبة). لكن نصفه الآلي لم يكن التردد جزءًا من قاموسه. فورًا أمر البوابة، فانفتحت سامحة له بالعبور.

بمنظومة مشاعره السابقة، خطا هادئًا إلى المكان. كان أشبه بتجمع سكني كبير، أقيمت فيه عدة منازل مُتجاورة، مُحاطة بحدائق واسعة. عبر بين الشوارع المُقامة حديثًا، ثُم انتقى مترلًا بعينه، واتجه إليه.

مر بالباب الأمنيّ، ودلف إلى الردهة، وهناك كان على موعد مع (آدم) و(حواء). كانا جالسين مُتجاورين، يتحدثان بلهجاتٍ متوترة خفيضة عمّا سيئولان إليه، ثُم توقفا مع مجيئه، مُتطلعين...

بدت في انفعالات وجهيهما الدقيقة دهشة بكر، لم تمحها جلسات التلقين والتعويد على عالمهما الجديد، وعمّا ينتظرهما.

كان (آدم) أول المُتحدثين، إذ قال بلهجة مُرحبة، وهو يتقدم إليه مُصافحًا: مرحبًا بك يا (كمال)

تبعته (حواء) بالتحية، بملامح يبدو الفرح فيها، استقبلهم (كمال) قائلًا بهدوء: مرحبًا بكما...

فانتشرت نوع من الطمأنينة في وجدانيهما، بدت على وجهيهما؛ فمذ استيقاظهما من رحلة البعث، كان يلازمهما شعور مُزلزل لاهث بالغرابة والرعب، كطفل بُعث لتوه إلى الحياة. أو ككيانات شبحيَّة عاشت في زيغ أحلام غامضة منسية، قبل أن تفيق من غيبوبتها -للمرة الأولى- أمام واقع أشد خيالًا من وطنها السابق. واقع يوشك على أن يُبدل جلدًا - لم يعتاداه بعد حتى- بسرعة فائقة.

آلات مُفكرة يرأسها آلي يشبه البشر.. يخبرونهما عن بعث حادث.. وفناء قادم.. ومصير مجهول.. أيّ عالم ذلك؟!

ظلت التساؤلات تُحلق في عقليهما من بداية المحيا إلى تلك اللحظة التي جلسوا فيها، بينما يقول (كمال) بذات الصوت الهادئ المُباشر: لأكون واضحًا.. أمامكما مُستقبلًا صعبًا؛ أعلم جيدًا ما تُعانيانه.. لكنه الفضاء الذي يضرب بلعناته المُستمرة على هذه الأرض منذ الخليقة.. والشمس التي تُصر الآن على القصاص منّا كما لو كنا سببًا في فناء جنسكم!

فابتسما بتوتر، وقال (آدم): أليس هناك أملًا في عدم حدوث ذلك؟!

فهزّ (كمال) رأسه نافيًا، ورد آسفًا: رُغم بدائية راصدنا الزمنيّ الجديد، ورُغم أنه لم ينقل لنا أبدًا المعلومات المُستقبلية كاملةً.. إلّا أنه لم يُخطئ قط.

أسرعت (حواء) مُشيرةً بيدها، وقالت بقلق بادٍ: وما الضمان أن

الموجات الشمسية لن تُصيبنا بضرر؟

تفهم (كمال) سؤالها، وود لو نطق الحقيقة: (إنهم يجهلون تأثيرها على البشر)؛ إلّا أنه آثر الكذب قائلًا بصوتٍ واثقٍ: لن تُصيبكم بضرر.. هذا مؤكد.

دفعته الكذبة لتذكر أولى كذباته أمام الجيل السابق من الإنسان، كما أنه دُهش من تلك الثقة في أعماقه الآلية-الإنسانية أنهما سينجوان، رغم نظريته الخاصة التي طورها وعززت ثقته هذه.

ساد الصمت ثقيلًا عليهم، وهمّ (كمال) بإخبارهم بنظريته، إلّا أن (آدم) قطع عليه ذلك، بتساؤله: حدثنا عن البشر يا (كمال).. أخبرنا عن ذكرياتك معهم.

كانا في جلساتهما المُتحفزة الخاضعة، وعيناهما المُتعلقة بسكناته أشبه بتلميذين يحملان براءة الدنيا وشغفها، استدر ذلك عطف الآلي عليهما، وأجاب بنبراتٍ حالمةٍ: للأسف لم تُتح لي الفرصة في معاشرتهم بالقدر الكافي؛ لكنني كآلي صُنع بأيديهم.. ولُقن بمعارفهم.. أشعر بالضآلة أمام إنجازاتهم وأستاذيتهم.. كما أشعر بما يُمكن أن تسميانه الحسرة والحزن عن الآثام التي ارتكبوها؛ كان العالم ليبدو أفضل كثيرًا لو تمكنوا من عزل مشاعرهم السلبية تجاه بعضهم، وتجاه العالم.

توقف لحظة؛ ليلمح العيون الشغوفة بما يقول، ثُم أكمل مُبتسمًا ذاكرًا: كان أساتذتي ومعلميّ أُناسًا توقرت الطيبة فيهم.. كانوا حالمين.. يؤمنون بصنيعتهم -أنا- بشدة.. كما كانوا يحملون شغفًا كبيرًا بالعلم، كُنتُ أشعر أحيانًا في نظراتهم أنني طفلهم المُدلل.

تجهمت ملامحه بحزن هادئ: كان صديقي الوحيد، وجاري يُدعى (عزيز).. كان رجُلًا مضيافًا تلقاني بترحاب عظيم، لكنه مات مع زوجته إثر حادث البرق في ذات اليوم.. مات بين يديّ.. كان لدي شعور مُحدد وأنا أرى جسده الهامد أمامي.. لم استطع تسمية ذاك الشعور ومُقارنته بما خبر الإنسان، لكنه جعلني أتيقن من غرابة ذلك الفعل المُسمى بالموت.. جعلتني التجربة أُدرك كم كان الإنسان حالمًا عندما صنعني.. مُحاولًا صناعة شيئًا قريب الشبه منه، ربما ليرثه كما أخبره عقله اللاواعي.. وأدركتُ الحقيقة الوحيدة وراء كل ذلك؛ أنني مهما بلغتُ من التطور لم أكن أبدًا لأكون مثل الكائنات الحية.

(كُنتُ أذكر تلك الحقيقة كّلما يصدفني في الدنيا شيء يعجز عقلي عن الوصول إلى عمقه.. وكلما قرأتُ، وراجعتُ تاريخ البشر...)

أضاف مُتنهدًا وخاتمًا: وأيقنتُ أن روعة ذلك الكائن المُسمى بالإنسان هي في شيئين افتقدتها كل الكائنات على ظهر الأرض، بما فيهم شخصي.. هُما الخيال، والحُلم...

تطلع إلى الجالسين أمامه، المبهوتين بكلماته. فقال إثر صمتهما المتواصل: لا تنسيان ارتداء الزيّ الواقي الذي وفرناه لكما.. ستجدانهما بغرفة النوم؛ فهما مُصممان من أجل حجب أيّة إشعاعات قد تضر بكما جرّاء ما الحدث.. ستضطران إلى ارتدائهما في الخارج باستمرار لمدة أسبوعين، أما داخل حجرات البيت فلن يكون لهما داعٍ، فقد تم تدعيم جدران المترل بمواد عازلة للإشعاع.

ازداد صمتهما المُرتبك، فزاد إشفاقه عليهما، وحثّه ذلك على الإسراع

بعيدًا عنهما.. قال: عليّ أن أذهب الآن.

فتضرج وجهاهما بمزيج من الحرج والتوتر، وقال (آدم) بصوتٍ مبهوت متحشرج: أين.. إلى أين أنت ذاهب؟

نهض مُجيبًا: سأذهب إلى المُجمع الفلكي، ثُم إلى المُستودع الغذائيّ.. لأراجع بعض الترتيبات النهائية.

كان يعلم أنه يكذب؛ فالحقيقة أن برنامجه العصبي قد نشط بقوة الآن فلم يعد يطيق مُجالستهما، إذ مع الوقت يتوطد الحزن داخل أليافه الآلية أمامهما أكثر وأكثر، ويزداد شعوره بالإشفاق عليهما مما هُما مُقبلان عليه.. آزره في ذلك برنامجه العقلي البحت، في أن يُحاول الابتعاد عنهما قدر الإمكان؛ كي لا يتعلقا به ويتأذيان نفسيًّا من رحيله.

كان يُفكر بذلك، بينما يرى القلق الزاحف إليهما عبر الأطراف مُجددًا، والمُتبدي في وجهيهما الشاحبين، وفي تساؤل (آدم) الأخير الهلع، إلّا أنه أومأ لهما مُطمئنًا: لا تقلقا.. سأعود إليكما مُجددًا.. قبل...

صمت لحظة؛ ليرى تأثير كلماته عليهما.. فبلغه الهمّ والشعور بالمسئولية الثقيلة المُلقاة على كيانهما المُتكونين توةً. وأضاف وهو يتحرك مُتحاشيًا نظراتهما: قبل ساعة الصفر.

-٦-

تدفقت آخر مستجدات الراصد الفضائي من العقول الآلية إلى رأس الآلي الأب، فزفر في توترٍ مُترقبٍ. كانت المعلومات تشي باقتراب الجسيمات الشمسية من الأرض.

مراسم الحفل على وشك البدء!

هتف بها (كمال) لنفسه في سخرية مُتوترة، بينما يتقدم تحت النهار الفاني إلى مترلهما.. كان قد قام بجولة سريعة مُتأملة حول المناطق المُحيطة. سار في الطرقات المُعبدة الخالية، وبين الحدائق والأشجار الغنّاء، وفي مُحيط زقزقة العصافير وصياح الطيور، وجولات القطط وعراك الكلاب، ثُم على ضفاف النيل العسليّ، وأمام البحر الثائر.

مع الوقت الذي غمره في جولاته، كانت الفكرة تثبت في عقله الفوتونيّ أكثر وأكثر.

لقد أحببتُ الحياة!

عبر الباب دالفًا، فلم يجد أحدًا في الردهة.. فاتجه على الفور إلى الحديقة.

في أرديتهما الواقية الفضية الرقيقة، كان (آدم) جالسًا، جواره (حواء) على كرسيين خشبيين مُطعمين بالعاج والذهب، بالغي الرُقي والروعة، يُشاهدان أفول الشمس، حاملة المصيبة التي سوف تحط على دنياهما خلال دقائق قليلة.

برأسين مُنتعلتين خوذتيهما الفضيتين، قُرب قمتيهما شباكيّ العيون المُغطيين بالواقي نصف العاكس، التفتا إليه، وقال (آدم) بوجوم: (كمال).. مرحبًا بك يا عزيزي.

فحيّاهما (كمال) واقفًا أمامهما، بينما لا يزال يدهمه الاندهاش من معاملة البشريين بعد زمن طال. ربت على كتف (آدم)، قائلًا بتوترٍ واضحٍ: أأنتما مُستعدان؟

فارتعشت ابتسامة (آدم) تحت خوذته، وهو يُجيب: بل عليّ أنا أن أسألك هذا السؤال.

لم يجد (كمال) ما يُجيب به من شدة التوتر، فساد صمتٌ واجم في

الغروب الحزين، ونظرت له (حواء) بإشفاق مُضيفةً: شكرًا لك يا (كمال).. شكرًا على إعادتنا.. وعلى إعادة الحياة البشرية على أرضنا من جديد.

رد (كمال) بنوع من التأثر: لم أفعل شيئًا.. إنه واجبي.

وأضاف بينما الليل القاتل يُقبل سريعًا مُتحمسًا: وهذا هو الموضوع الذي أتيت لأنهي به حديثي معكما.

ارتفعت الحواجب قليلًا بفضول، وأتم (كمال) كلامه بصوتٍ هادئ: عندما قلتُ إنه واجبي كُنتُ أعني ذلك بالفعل.

وأضاف بلهجةٍ مُغايرة، تحمل نوعًا من الحماس: طوال الفترة الزمنية التي أعقبت فناء جنسكم الأوّل، والتي بلغت الآن تسعة وعشرون عامًا.. كان هدفي الرئيسي في الوجود هو دفع الحضارة التي بناها البشر إلى الأمام مهما تكلف الأمر.. وإعمار الأرض كما كان يفعل.. تلافيت أخطاءه السابقة إلى أن وصلنا إلى ما ترياه الآن من قمة التطور التقنيّ.. لكن ما كان يقلقني دائمًا هو أن تطورنا مُجرد تقدم علميّ فارغ.. كان تقدمًا من أجل التقدم ليس إلّا.. لا يحمل أيّة سمة من سمات الحضارات الحية شديدة الخصوصية كحضاراتكم، ورُغم رفضي مبدأ تطوير المشاعر الآلية لتصير مثلي أو أقرب إلى الإنسان لأسباب تعلمتماها جيدًا في جلسات التلقين؛ إلّا أن شغفي لحياة البشر، ولحضارتهم لم ينقطع.

للمرة الأخيرة، انفتحت أضواء الحديقة الحساسة لظلام العالم؛ فتوقف لحظة ليستشف تأثير كلماته على وجهيهما المُغطيين، قبل أن يُضيف: لجأتُ إلى الكتب السماوية والرسالات.. مصدر حياة أجدادكما الروحية.. قرأتها، واستوعبتها جيدًا حتى تشبعت بها.

لوّح بيديه مُكملًا باهتمامٍ شديدٍ: كان أكثر ما لفت انتباهي بعد اليقين بوجود، ووحدانية الله مسألة القيامة.. كيف ستتم دون وجود بشر أحياء على سطح البسيطة؟!.. لذلك آمنتُ بضرورة استمرار الجنس

البشري مهما بدا ذلك مستحيلًا وقتئذ.. ثُم أتى اكتشاف خلاياكما المحفوظة على سطح القمر ليؤكد لي إيماني.. لكنني بغرابة شديدة آثرتُ ألا أُسرع بمشروع إعادتكما إلى الوجود، وكان لدي في ذلك يقينٌ عجيب أن الوقت لم يحن بعد.. كأنني في انتظار إشارة ما!

وابتسم بفخر: وعندما علمتُ بأمر فنائنا.. تأكدتُ حينها أن الوقت قد حان.

ثُم همس بهدوء، بينما تترقق حولهم نسمات باردة مؤيدة: كانت تلك هي الإشارة.

ضربت عبارته الأخيرة نفسيهما بشدة، فأرعشت بدنيهما. التمعت الدموع في عينيّ (حواء)، وقال (آدم) بصوتٍ مُضطرب: وحدنا سنبقى.

فهزّ (كمال) رأسه، قائلًا بصوت مطمئن: لا تقلقا.. لقد وفرنا لكما، ولنسلكما المُنتظر مخزون غذائيّ كبير غير قابل للفساد.. كما أن العلم الذي تحملانه يجعلكما قادرين على مجابهة الحياة التي تنتظركما.

توافدت المعلومات عن وصول الأمطار الشمسية القادمة إلى الأرض، فرفع رأسه إلى السماء، خلفه (آدم) و(حواء) المُشرئبان بأنفاس وأعين مبهورة.

كانت السماء قد بدأت تصبغها موجات أطياف خضراء وحمراء ووردية، مُتداخلة في مشهدٍ بديعٍ ساحر. ومُتدفقة على سطحها بانسيابية بالغة الرقة والنعومة •. كأنما يحتفي الكَون برحيل خلفاء الأرض الآليين، وتنصيب البشريين على عرش القيادة مُجددًا.

تحت السماء المسحورة، حدّق بهما (كمال) باضطرابِ إنسانٍ مُقبلٍ على الموتِ، فعاد رأساهما إليه بصعوبة من أسر المشهد الساحر، وبعينين دامعتين هتف: كتاب الله، وآثار رسله.. عليكما بها.

• ظاهرة الهالات التي تُصاحب العواصف الجيومغناطيسية القوية.

وأضاف سريعًا، وهو يلوح بانفعال: حافظا على الحياة، بالله عليكما حافظا عليها...

خفق القلبان له ولحالهما، وأقبل عليه (آدم) مُحتضنًا، فتلقاه بتأثر لازال يُدهش نفسه الآلية، وربت على ظهره بإخلاص، ثُم ألقى على (حواء) نظرة حانية. وجمّد ابتسامة على شفتيه الصناعيتين، بينما يهتف: وداعًا.

وقبل أن يرد أحدهما تحيته، سمعا طقطقة خفيضة داخله، واشتمت أنفاهما رائحة احتراق، على إثرها تراخت ابتسامته ثُم جسده هامدًا بين ذراعيّ (آدم)، فتلقاه الأخير بحزنٍ هادئ، قائلًا: وداعًا يا (كمال).. وداعًا أيها البشري!

وأرقد جسده شبه الآلي-شبه الإنسانيّ برفق على العُشب الرطيب، بينما يرتفع بكاء (حواء)، ونحيبها.

في ظلام العصر الجديد، اقترب منها (آدم)، مُلتقطًا يدها في راحته، ناظرينِ سويًا إلى الأبراج الرقمية الشاهقة، وهي تحترق وتأفُل وتموت، واحدةً تلو الأخرى؛ فبدت أشبه بعماليق أسطورية قاتمة، تحت شفق الألوان المُتدفقة، وضياء القمر الوحيد.

نصف

شهورٌ تسعة

(هه.. هه.. هل انتهينا؟)

بحث (سلام) في وجه الآلي الإنسانيّ الشاحب عن إجابة، بينما يعود لينظر بين فخذيه، مُترقبًا وصول طفله إلى العالم. لم يكن هنالك ألمًا.. فقط توتر، ودهشة من تلك الآلية العجيبة التي يخرج بها طفله منه. معذورًا كان على كل حال؛ فهذه المرة الأولى له .

أجابه الآلي بوجهه الأبيض الميت، والذي لا يحمل من الحياة إلّا هيكل وملامح خارجية: 70.6% من عملية الولادة تمت بنجاح.. اطمئن.. مازال أمامنا بضع دقائق للانتهاء.

أومأ (سلام) برأسه ببطء، ثُم عاد يستند إلى ظهر السرير الوثير، ناظرًا إلى السقف زهريّ اللون في شرود. أدرّت ولادته الأولى ذكرى مرَّته الأولى في مضاجعة نفسه، فتقوس فمه بابتسامة حملت خياله إلى الذكرى.

سكون الاستكشاف.. تصاعد اللهفة.. شبق تناول فرجيه بعضهما البعض.. قمة القذف.. ثُم موتٌ مؤقت.. ومهد جديد.

قاده تبخر خياله إلى صراخ الطفل، إذ تتمدد رئتاه بشهيق نَفَسَه الأوّل

من دنياه. وصوت الآلي المُحايد –الشبيه بصوته–: انتهينا.

نظر إليه، فوجده يحمل اللحم الأحمر البض إليه –بعدما غسله– ، قائلًا بنبرة مختلفة: خالص تهاني.

ابتسم (سلام) وهو يلتقط طفله في لهفة. بذراعين مرعوشتين، حمله إلى صدره، محاولًا استيعاب عجيب مشاعره التي تفجرت. إنه جزء منه.. كان فكرة سكنت خياله يومًا وصارت واقعًا.. كان شهوة انتهت إلى كتلة حياة من اللحم. كتلة تشعر، تفهم، ويومًا ما سوف تفكر وتُبدع.

اتسعت ابتسامة (سلام)، لتشق وجهه الصغير القمحيّ، عندما طفق بكاء الطفل يهدأ، ليُحرك يديه المُنمنمتين مُداعبًا وجه والده. همس فيه بينما ينظر إلى عينيه الزيتونيتين اللامعتين: مرحبًا بك يا (مهد).. يا أول نصف إنسان في عالمنا.

عـــامٌ

(أعزائنا المشاهدين.. موعدنا وموعدكم الليلة مع (مهد سلام).. الطفل الأوّل من نوعه في العالم الجديد..)

قالها (عز) الإعلامي البارز في قناة (الدائرة) الرقمية، بلهجته التشويقيَّة المعتادة، وهو يواجه جمهوره الحاضر بالأستوديو، بينما يعود ليلتفت إلى (سلام) قائلًا: نرحب أولًا بضيفنا الكريم.. والد (مهد).. العالم الدكتور (سلام نجم).

تنحنح الوالد مُخضبًا ببعض الخجل: أهلًا بك...

ارتفع صوت الإعلامي (عز) مُتسائلًا بنبرة إعلامية: حدثنا عن قصة (مهد).. كيف حدث ذلك؟

صمت (سلام) لحظة مُرتبكًا، ثُم هزّ رأسه قائلًا: لا نعلم بالتحديد؛ بالرُغم من البحوث المستمرة التي أجراها العلماء.. بدأ الأمر في إحدى الفحوصات الروتينية الدورية التي يقوم بها جميعنا أثناء فترة الحمل.. إذ ثبت بتحليل الكروموسومات• أن (مهد) أحاديّ الجنس.. كانت صدمة حقيقية لي وقتئذ.. واقترح عليّ الطبيب أن يتولي فريقه البحثيّ العمل على (مهد) في محاولة لتعديله جينيًّا لكنني رفضتُ في المرتين.. مرة مع اكتشاف الأمر، والمرة الأخرى كانت بعد الولادة.

بدت بعض الدهشة على وجه (عز) المُتسائل: ولم رفضت؟ ألم تفكر في كون ذلك يمثل خطرًا مستقبليًا على صحة (مهد) النفسية؟.. خاصة أنه سيُعامل معاملة خاصة من قبل المجتمع؟

فابتلع (سلام) ريقه، ملوحًا: بالتأكيد فكرت في ذلك، ولكنني آثرتُ ألّا أجعل من ولدي حقلًا لتجارب مُستمرة لا أعلم متى وكيف ستنتهي.. كما أنني فضلتُ ألّا أفرض على الطفل اختياري الخاص حتى ولو من باب حمايته.. ذلك يتنافى مع المبدأ العام للحريات كما يرفضه المبدأ الأخلاقي أيضًا.

وتراخى توتر ملامحه بعض الشيء، وهو يضيف مُلوحًا: بالمناسبة كانت إحدى اقتراحات الطبيب الأخرى وقتئذ أن نقوم بإنهاء الحمل،

• الكروموسومات: هي المادة الصبغيّة الموجودة بأنوية الخلايا، والتي تحتوي على الجينات التي تحمل الصفات الجسدية والجنسية.

رُغم تأكيده أنه لا يعاني من أيّة عيوب خلقية!.. لكن الأمر ليس بتلك السهولة؛ نحن نتحدث عن إنهاء حياة.. وليست أيّة حياة!.. إنها جزء مني.. لذا اشتد إصراري على استكمال حمل (مهد) رغم كل تلك المخاطر.. وأعترف أن خوفي عليه قد ازداد مع اقتراب موعد ولادته، واقترن كل ذلك بلهفتي الشديدة إليه.

ثُم تنهد، مستكملًا: كانت فترة عصيبة؛ لكنها ممتعة على كل حال.

وأضاف ابتسامة نهائية لكلماته.. مما دفع (عز) للنظر إلى الطفل المستلقي بين ذراعيّ والده، يلعب كفاه الصغيران بكرة في حجم البرتقالة. ثُم عاد يسأل: وماذا عن مستقبله؟ ألديك خطة ما؟

أجاب الوالد: قمت بطلب برنامج خاص لمربيته الآلية للتعامل معه.. كما أنني أجهز نفسي لتربيته بمنطق أنه مثلنا جميعًا.. لا أريد أن أصنع فيه المزيد من العقد النفسية؛ إنه يحتاج أن يعيش حياة طبيعية مثلنا، كُنتُ أرفض باستمرار الصخب الإعلامي حوله.. لذا سيكون برنامجك الظهور الإعلاميّ الأخير لنا.

ابتسم (عز)، وقال بصوتٍ دافئ: شكرًا لك على ثقتك الغالية في برنامجنا.. أتود أن توجه لمشاهدينا رسالة أخيرة؟

تنحنح (سلام)، قائلًا بابتسامة هادئة، هازًا طفله الذي قد نعس: لا أجد ما أقول سوى أن أؤكد أن (مهد) مُجرد طفل عادي.. على الجميع ألّا يضخم من أمره، ويتعامل معه كما لو كان فئة أدنى أو مسخ غريب في المجتمع.. ليس معنى أنه يملك نصف أعضاء تناسلنا أنه يملك نصف حياة.. أتمنى أن يمنحه المجتمع حقه الاجتماعي الطبيعي، ليس بدافع الشفقة

إنما لأنه فرد كامل يستحق حياة كاملة.

رجّ التصفيق المكان إثر كلماته، فأومأ للحضور مُبتسمًا مُمتنًا، بينما يقوم لمصافحة (عز)، حاملًا ولده المُستيقظ انزعاجًا من الضوضاء المُفاجئة.

سبعة عشر عام

(من أنا؟)

هتف بها (مهد) لمرآة غرفته، متأملًا انعكاس وجهه القمحي. كان يحمل الكثير من ملامح والده؛ من أنف مستقيم، وعينين غائرتين عسليتين وفم بارز. اقترب بوجهه من المرآة متأملًا سالفيه الناعمين القصيرين؛ إذ لاحظ بزوغ شعيرات صغيرة تحتهما. كان مكانًا غريبًا بالنسبة إليه. فهو لم يرَ شخصًا مُشعرًا في تلك المنطقة من قبل؛ ففي جميع الناس—حسبما درس وألف- تتوازن هرمونات الذكورة المُعدلة مع هرمونات الأنوثة المُعدلة، لا تطغى إحداهما على الأخرى، فيحفظان للجسد قدرًا كبيرًا من التوازن الشكليّ، حتى في مراحل البلوغ.

(غريب..)

حملت أنفاسه الحارة الكلمة، متكاثفة على سطح المرآة.

كان قد درس التركيب البيولوجي للإنسان الجديد، أو الإنسان المُعدل كما تحب الكتب تسمية الإنسان ثنائيّ الجنس؛ فقد كان الإنسان القديم قبلئذ متمايزًا إلى ذكرٍ وأنثى بحسب الصفات الجنسية. وكان يتكاثر بتزاوج النوعين على صورة تقليدية متعارف عليها.

كان العالم الحديث قد بدأ يضج بدعاوى مستمرة مُتزايدة من أجل مزيدًا من المساواة بين طوائف البشر. واستطاعت تلك الدعاوى تحقيق انتصارات متتالية على مرة التاريخ، حتى بلغت قمة نصرها مع بلوغ إحدى القمم التقنية في القرن الثاني والعشرين. وكان العام 2197م فاصلًا، إذ وافق سكان الأرض بالإجماع على إنهاء حالة التمييز التاريخية للبشر إلى ذكور وإناث، ودمج الجنسين في جنس واحد يحمل كلا الصفتين في الجيل الجديد، الذي سوف يحمل أعضاء جنسية مُعدلة كي تتمكن من مجامعة بعضها. كما سيحمل نظامًا هرمونيًّا مُختلفًا حتى لا يُختل البناء الهرمونيّ للجنس الجديد. لتبدأ أكبر عملية تغيير جينيّ في تاريخ البشرية. ولم يلبث أن بدأ تطبيق قانون التعديل الجيني على جميع أعضاء البشر الجنسية في العام التالي، بحيث يتم التغيير التدريجي في الأجيال التالية، دون إخلال بالجيل السابق المُتمايز.

-وها هو ذا الإنسان أحاديّ الجنس يعود من جديد!

هاتف بها نفسه في سخرية، قبل أن يرحل مع صورته المنعكسة إلى الردهة.. كان والده قد غادر إلى العمل. إذ كان عالمًا بمُجمع أبحاث الطاقة الغريبة. أما هو فكان مُستعدًا للذهاب إلى مدرسته.

تنهد (مهد)، وهو يفتح باب مترله، ليصفعه نور الصباح بنسيمه مُرحبًا.

خطت قدماه طريقهما عبر الصباح البارد -رغم الشمس الشاحبة وسط الغيوم- إلى كابينة الانتقال الآني الرابضة بين مترله ومترل جاره. انفتح باباها إثر قدومه، فدلف داخلها مُرسلًا أوامره العقلية إلى حاسوبها

المركزيّ، و لم تلبث أن انغلقت عليه لتعتصره مفاعلاتها إلى طاقة تُضخ عبر الألياف الضوئية إلى مدرسته.

وعندما خرج منها عابرًا بوابة المدرسة، تمنى أن يعيش لحظات تحوله إلى طاقة عبر الانتقال الآني إلى الأبد. لحظات خواء الجسد وصمت الروح. كان مرتبكًا كعادته في الصباح، إذ تزوره وساوسه الدءوب، حاملةً معها ذنوبًا لم يرتكبها، وآثامًا تلهب سياطها جسده الفريد.

ألقى تحيته المُتبسّمة الباردة على زملائه الغادين إلى فصولهم، سائلًا نفسه –للمرة المليار على الأقل–: من هم؟ أهم أنوية مماثلة له ولكن تحت قشرة مختلفة؟ أم أن قشرتهم الغريبة عنه شديدة الالتحام بجوهرهم؟ لا يمكن فصلها؟.. هل أنا بشري؟

دومًا كان هذا هو سؤاله. ودومًا لم يجد جوابًا شافعًا لروحه المشتتة. يذكر سؤاله ذاك لوالده ذات مرة. ويذكر طمأنته الأبوية المستمرة.

أنت لست مُختلفًا عن أحد في شيء يا (مهد).. وإن كنت مختلفًا فالأمر كله في الملامح.. نحن لسنا متماثلين في الشكل، ونتقبل هذا برحابة صدر...

الأمر كله في الملامح. كان هذا رأي والده الذي اهتم به جلّ اهتمام.

(إجابة ممتازة!)

انتبه (مهد) إلى معلمه خبير الفيزياء.. كان يصيح بالثناء على زميل (مهد) في الصف الأول، وهو ينظر إليه بثبات بعدما لاحظ شروده المستمر. مما دفع (مهد) للانتباه والهبوط ببصره، وتركيزه على هولوجرامه في محاولة لحل المعضلة.

وعندما حلّت فترة الراحة بين الحصص، صاح به زميله (بدر) بصوتٍ حاد: يا نصف!

فاربدت أسارير (مهد) في غضب. وقال له بأكثر أصواته هدوءًا: نعم؟

اقترب منه ساخرًا: ألن تترل؟

بصوت آلي رد (مهد): لا.

فابتسم (بدر)، مُتهكمًا بصوتٍ ساخرٍ مُتقطعٍ: لَمْ؟ أخائفٌ أنت من أن يخدش أحدٌ مشاعرك المُرهفة مُجددًا؟!

دفعت العبارة ذكرى الاشتباك الأخير بينهما. لمعان العيون المُتآمرة، والبسمات الساخرة التي بدت أقسى من لكماتهما المُتبادلة في ذلك اليوم المقيت.

نظر إليه (مهد) بعينين تمنى لو أردته قتيلًا، وبصوت مشدود: لَمْ لا تتركني وشأني الآن يا (بدر)؟!

ثُم أضاف بعصبية، مُلوحًا: بل انتظر.. هلم بالمزيد!.. أسخر مني كما شئت.. وأعلمني حينما تنتهي!

لم ينتظره، بل أسند رأسه على ذراعيه المعقودتين على سطح مكتبه الصغير، مُغلقًا عينيه، ومُتمنيًا أن يُمكّن من إغلاق أذنيه عن (بدر)، الذي زام في غضب مكبوت، وظل يُحدق برأسه المُنخفض لدقيقة، قبل أن يتركه خارجًا من الفصل.

فارت نفسه داخله، لكنه ظل صامدًا، مُغلقًا أمامها منافذ انهياره

بإحكام. وعلى الرُغم من ذلك؛ فرت من بين جفنيه الأيسرين دمعة سريعة، فمسحها بذراعه المتوسّدة بوجهه.

وصرخ داخله: لماذا أنا بالذات؟! لماذا خُلقت هكذا؟! لماذا لم أُخلق مثل الجميع؟!.. لِمَ لا يتركونني وشأني؟!

أحيانًا كان يشعر بسواد موجات الكره يغمره ويفيض نحو والده؛ سبب وجوده التعيس في هذه الحياة .

تدفقت في خياله ذكرى الليلة السابقة، عندما فاتح والده بالأمر بقلب مُضطرب: لقد قررت أن أخضع للعلماء الحيويين عسى أن يجدوا علاجًا لحالتي!.. أريد أن أعيش مثل الآخرين!

اقترب منه (سلام)، رابتًا على ظهره، وناظرًا لوجهه الساخن المُحتقن، وهو يقول: قرار خطير لا يُمكنك اتخاذه وسط هذا الانفعال العنيف يا (مهد).. الأمر ليست بهذه السهولة.. وستجد نفسك دومًا تحت مجاهر اختبارات لا تنتهي.. ستُعامل مثل فأر تجارب؛ فحوصاتهم المستمرة ستقتل قدرتك على الاستمتاع بالحياة.

شعر (مهد) بالدنيا تُحاصره داخل جسده، فانسالت دموعه الساخنة دون أن يشعر، وصاح: أيّة حياة؟! أيّة حياة تلك التي أحياها؟! مُحاطًا ببحر من سهام العيون المضطهدة المُتحفظة؟!.. ذلك غير السخرية المُستمرة مني ومن حالتي!.. لقد سئمت ذلك! سئمت!

فاحتضنه والده تاركًا إياه يُنهنه على صدره، وهو يقول بصوتٍ مُضطرب خافتٍ: صدقني يا ولدي.. أنا أشعر جيدًا بما تعانيه.. عليك أن تعلم أنني لا أكف عن السؤال عن علاج لك؛ لكنهم يؤكدون أن أبحاثهم

لا تزال قيد التطوير في ذلك النوع الخطير من التعديل الجينيّ.. لكنني آمل ألّا تفعلها حينما يتوصلون إليه.. عليك أن تظل ثابتًا على هويتك مهما حاصرتك عيونهم، عليك أن تحوّل كل تلك السخرية إلى طاقة رهيبة تسري في كيانك إلى إرادة قاسية لتوجه لهم رسالة أنك ستكون من تريد مهما سخروا، أو استهزؤوا.

ثُم برفق دفع رأس ولده الساخن بالبكاء للخلف، لينظر بعينيه العسليتين في ذات لون عينيّه الكسيرتين، قائلًا بثباتٍ حانٍ: عليك أن تكون أنت.. وأن تُصر على ذلك.

رفع رأسه عن ذراعيه، وفتح برنامج الرسم بحاسوبه. وأخذ يعبث بأصابعه على الصفحة الهولوجرامية المُجسمة، مُشكلًا خطوطًا مرتعشة خلف أصابعه، عشوائية مثل خطوط مشاعره.

بعد سبعة عشر عامًا منه، لا يذكر أنه صادق شخصًا يستحق. حتى صداقات الطفولة العابرة كانت تنفض بعدما تعلم حالته. كان أقصاها ألمًا في العاشرة من عُمره تقريبًا، عندما أتى صديقه السابق (عُلا) إليه يومًا وتلك النظرة المقيتة في عينيه، قائلًا بصوت مُتعلثم: والدي يقول أنك لست مثلنا.. يقول أنك نصف!

تذكر صدمته عندئذ، إذ لم يكن شخصيًّا يفهم حالته بالقدر الكافي كذلك. لكنه تذكر رائحة الغضب في أنفه وتوتر عضلاته صدره ، تذكر خبطات قلبه المتسارع المُحترق. وتذكر ألم قبضته عندما دفعها في وجه (عُلا)..

وعندما بكى إلى والده بما ضربه به صديقه. فاضت عينا الوالد بالحنان

المترقرق في مائها. وأجلسه على فخذه، قائلًا بصوت مُتهدج لازال يدغدغ قلبه عندما يذكره: أنت لست مثلنا يا (مهد).. أنت أفضل منا جميعًا؛ لأنك مُميز.

ثُم أضاف ماسحًا على شعره الفاحم الناعم: أنت لست نصف؛ بل أنت أكثر كمالًا منا.. أما (عُلا) ووالده.. فهما أحمقان لا يعقلان شيئًا.

وصمت لحظة، مسح خلالها عينيه الدامعتين، قبل أن يُضيف بوجهٍ مُحتقن: يومًا ما ستفهم ماذا أقصد.. ستفهم وستذكرني.

وكان آخر ما يذكره في ذاك الحدث هو ابتسامة وجه والده.

-متى أفهم يا (سلام)؟! متى؟!

هتف بالعبارة تحت أنفاسه المقهورة، بينما لا تزال أصابعه تعبث على الهولوجرام.

بنبضٍ متسارعٍ، وجد سبابته ترسم قوس على يمينه، ثُم تتبعه بقوس مُقابل يلتحم معه يسارًا. تذكر أنه قرأ عن هذا الرسم الذي مثل حالة عاشها كل من عاصر زمن ما قبل التعديل الجيني؛ قلب الحُب.

ثلاثون عامًا

أنهى (مهد) مراجعة المعادلات الأخيرة في نظريته ، قبل أن يُغلق الهولوجرام، ثُم مكتبه بمركز الأبحاث الفيزيائية الفلكية. وخطا في الممر المؤدي إلى كابينة الانتقال الآني، مُلوحًا بيديه للزملاء. صادفه في التقاطع الأخير أقرب زملائه إليه (وعد)، فابتسما قبل أن يضيف الأخير بمرح:

سأنتظرك غدًا في الغداء كما اتفقنا.

أومأ (مهد) برأسه، وقبل أن يحرك لسانه، أضاف زميله باهتمام ماسحًا حاجبه الأيمن بأصابعه: ما أخبار بحثك في المادة المظلمة•؟

رد (مهد) وسط تثاؤبه: سأخبرك غدًا.

وأضاف مُلوحًا باعتذار: معذرة.. فأنا مرهق للغاية.

هزّ (وعد) رأسه، مُلوحًا: لا عليك.. المهم ألّا تنسى موعدنا.

ضحك (مهد)، ولوّح بيديه وهو يتحرك: بالتأكيد!.. أين سأذهب منك أساسًا؟!

وأكملت خطاه طريقه في الممر، ثُم خلال لحظة من الانتقال الآني عَبَر إلى ردهة مترله، التي أضاءت تلقائيًّا بمُجرد دخوله.

كانت برودة الطقس تضفي ظلالها النفسية على المكان رغم كفاءة التكييف المركزيّ، ضاعف من تأثيرها ومضات البرق وأبواق الرعد بالخارج. أمر عقله التلفاز الرقمي بالعمل؛ فكان له ذلك، بينما يتجه إلى غرفة النوم ليغير ملابسه.

وبالرُغم من أن ضوضاء التلفاز كانت أكثر سيادة على ضربات الرعد، إلّا أنه عقله كان مع الأخيرة، فشعر بها تضرب جدرانه المصمتة

• المادة المُظلمة: جسيمات مادية مجهولة، ذات تركيب غير محدد بعد، لا تبعث ولا تعكس أي إشعاع كهرومغناطيسيّ يُمَكننا من رصدها بشكل مباشر؛ لكن يمكن الاستدلال على وجودها من خلال تأثيراتها على المادة المرئية مثل النجوم والمجرات. وتُمثل 96% من كتلة المجرات

من الداخل وتكاد تفجر من خلفها مياهه تفجيرًا.

عاد إلى الردهة، بينما يُلقى نظرة سريعة على التلفاز، كانت كفيلة بإلغاء كل رغبات جسده في راحة أو طعام. إذ تلوّنت دقائق الهولوجرام بالخبر الذي هبط عليه بوقع أشد من ألف برق.

(في مفاجأة مُدهشة للعالم أجمع.. وُلد اليوم ثاني إنسان أحادي الجنس على وجه الأرض)

قالها المُذيع بمزيج من الإبهار الزائف والانبهار الحقيقيّ أمام (مهد) مبهوت الحلق. ثُم أضاف الأول رافعًا حاجبية: في القُطر الشمالي من الاتحاد.. وُلد –أو الأدق أن نقول وُلدت– (حياة).. ثاني إنسان أحادي الجنس.. لكن هذه المرة هي أنثى بمقاييس عالم ما قبل الاندماج الجنسي.

انبعثت صورة المولود الجديد في حضن والدها. فوق شريط أحمر من الأخبار المُتحركة في سرعةٍ لا تُرحم.

أكمل المُذيع: جدير بالذكر أن أول إنسان أحادي الجنس في عالمنا كان الدكتور (مهد سلام) والذي يعـــ...

لم يعد يسمع؛ فقد زاغ سمعه كبصره إثر دهشته.. تحرك إلى ثلاجته، فتجرّع كوبًا من الماء، آملًا أن يهبط ببرودته بردًا وسلامًا على قلبه المُحترق.

اتجه بخطواتٍ شاردة إلى زجاج النافذة، مُتطلعًا إلى الدنيا المكفهرة بغضب البرق والرعد. راوده شعورٌ مُزلزلٌ، كأنما ترك البرق ممص صواعق المدينة، ليحتل جسده؛ ليأتي الرعد فيسحق كيانه سحقًا.

أهو حُلم؟!

إن كان كذلك فقد تمنى من كل قلبه أن يتحول الأمر بسحر ما إلى واقع. إنه يحلُم بتلك اللحظة منذ مراهقته.. بقلبه كان هنالك أملًا غامضًا بأن يختبر الحُب. عندما قرأ في أدب العصر الأقدم عن ذلك التفاعل الغريب بين الإنسان وأخيه الإنسان من النوع الآخر، تمنى منذ حينها أن يعيش تلك اللحظة حتى الذوبان.

كان قد اعتبر نفسه مريضًا، وكان متيقنًا أن حُب مثل ذلك هو الشيء الوحيد القادر على شفاءه.

سطع برقٌ جديدٌ في دنياه، وآخر في داخله، شعر به يُحيي عنقاءه الراقدة في الموت. ومع زحام خواطره، باغته خاطر بالغ المنطق، فبدا بالنسبة لخياله السارح بعيدًا تمامًا.

مُجرد وليدة هي (حياة)...

(حياة) التي تحمل سر حياتك مازالت صغيرة جدًا.. وسيتعين عليك انتظارها...

رغم كآبة الخاطرة، إلّا أنها لم تثبط من عزمه وإيمانه، ووجد نفسه يهتف: ما المانع؟ لقد انتظرتكِ طويلًا.. ورفضتُ التعديل الجينيّ من أجلكِ.. لن يضيرني المزيد من الانتظار، لقد أحببتكِ يا (حياة) قبل أن تأتي إلى دنيانا.. ومستعد لانتظاركِ حتى آخر لحظاتي.

اخترقت خواطره ذكرى عبارة والده: يومًا ما.. ستفهم ماذا أقصد.. ستفهم وستذكرني.

فوجد نفسه يبتسم، اتجه إلى الهاتف؛ كي يتصل به؛ ليزف إليه فرحته الأولى الحقيقية. لكنه تذكر تأخر الوقت، فآثر ألا يزعج نومه المُبكر

المُعتاد. لكنه لم يطق الانتظار، فترك له رسالة مُسجلة قال فيها ببسمة أضاءت داخله كالقنديل: شكرًا يا والدي.. كنت على حق.

خمسون عامًا

أتى النهار الربيعيّ مُشمسًا صحوًا على العالم، وبالأخص على (مهد) الجالس في استراحة الجامعة، يُراقب الشباب الرايح والغادي بخطواتٍ منها ما هو مُبطئ، ومنها ما هو مُسرع؛ لكنها جميعًا تتفق في حيويتها، وشغفها الواضح للدنيا. وتلقائيًّا زج نفسه في مقارنة ظلمته بين شبابهم وشيخوخته المُقبلة- رغم كل وسائل إطالة العُمر الحديثة.

تحسس لحيته الكثيفة المُنمقة، والتي بدت شاذة الشكل وسط أناس ذي وجوه ملساء لامعة بتوازن الكفتين الهرمونيتين. وفكر في شبابه الذي احترق في محطة انتظار طويلة، لم تمنعه من تحقيق كُل ما يُمكن أن يُحقق من مُنجزات علميّة. فقد تمكن من وضع حلول أذهلت العالم لبداية التعرّف على المادة المُظلمة المُتراكمة بأنحاء الكون.

اختلطت عليه مرات تقلده الجوائز ونيله الأوسمة؛ فقد كانت عقليته العلمية تعمل في وادٍ، وقلبه المُضطرب الوحيد يخفق في وادٍ آخر. كان وادي (حياة) يبتلع كل مُنجزاته في نهم، ويتطلع إلى المزيد. كان موقنًا مع كل نصر له، إنما ينتصر من أجلها فقط.. يترقب الأيام تتراكم صانعة لبنات على جسره إليها. وكان جلّ ما يخشاه ألّا يُمهله العُمر من تقديم قلبه وانتصاراته قرابين تحت قدميها.

وهاهو جالسٌ في جامعة الفلسفة، التي التحقت بها. عازمًا على تحقيق

مُراده مهما بدا مُستحيلًا.

لم يتردد لحظة، فتلك اللحظة قد كُتبت في لوحه منذ قديم الأزل. كان يعلم أنه سيُقدم عليها مهما كانت العواقب، رُغمًا عن القلق الناهش في صدره من احتمال رفضها له.

رآها قادمة مع بعض الزملاء إلى الاستراحة بين الزروع الغنّاء. اعترف لنفسه بالخجل من تتبعها قبلئذ، لذا لم يجد في نفسه أي ذنب الآن لإتمام مهمته. خفق قلبه لمرآها كما توقع، وازدادت خفقاته عندما جلست مع زملائها بالقرب منه.

كانت بعض الحدة قد نشبت في صوتها الرقيق، وهي تقول بابتسامة متحمسة: فلتستمعوا بفلسفاتكم العلمية الحديثة كما شئتم؛ لكنني من مُحبي دراسة فلسفة التاريخ.. أضناني عصركم البارد بكل ما فيه من تسطيح للمعاني وقتل للوجدان!

ضحك الجميع بخفوت، وقال أحدهم: ربما تكونين على حق.. لكن عصرنا ذلك الذي تسخرين منه قفز بنا لمستويات غير مسبوقة من التقدم والتحضر، والآن يصارع المرض بكل قوة آملًا في دحره، ربما يُفني الموت عندئذ ونحيا الخلود!

ردت عليه: الخلود ليس مُجرد إطالة أبدية لعمر المرء يا (شمس).. الخلود يكمن في الحياة بسعادة حقيقية حتى لو كانت حياة قصيرة، الخلود قد يكمن في لحظة.. أو فكرة تحيا عبر العصور!

مازحها زميلٌ آخر: الآن تدفعي بنا مُجددًا إلى متاهاتك الفلسفية!.. عمومًا عصرنا الحالي واقع غير قابل للتغيير.. وسيكون عليكِ الحياة فيه

شئتِ أم أبيتِ!

فكان ردها سريعًا كالطلقات: ولكنني سأجد دائمًا لحظات للهروب المستمر منه.

وأشارت بسبابتها له، مُضيفة: وسأنتصر.

ضحك الجميع بقوة هذه المرة، ووجد نفسه يهتف من خلفها بصوت مسموع: بالتأكيد ستنتصرين.

فالتفت الجميع إليه، وأضاف مُحاولًا تلافي لقاء عينيها: إذا انتصر العلم على الحياة.. لن تكون هناك حياة!

وهتف بعضهم باندهاش: دكتور (مهد)؟!

قاموا لتحيته باحترام لم يمحِ النظرة التي طالما قتلته منذ كان صغيرًا. لكنه تدرَّب على تجاهلها بل واحتقارها بالخبرة.

وهتفت (حياة) مُبتسمة: يبدو أنني سأتفاءل يا دكتور.. فقد تصادف أن اسمي (حياة) أيضًا!

ضحك الجميع برصانة، واكتفى هو بالابتسام بوجه متوهج فرحًا وارتباكًا: مرحبًا بك يا (حياة) في عالمنا.

مسحت على شعرها الكستنائيّ المُسترسل خلفها في ذيل حصان. قبل أن يبدأ التعارف بينه وبين الجميع، وأضافت باستعجاب: أوليس غريبًا يا دكتور (مهد) أن يقول من هو مثلكم -أهل العلم- ذلك؟!

عبثت أصابعه في فوده الأيمن، وهو يُجيبها بينما عيناه تفضحه: ربما لأنكم -وربما لأول مرة- تنسون صفتي الأخرى التي انتسب بها إلى

عالمكم!

فابتسم الجميع بحرج، وتضرج وجه (حياة) بخجل ظهر أسفل قناع عنادها المُحتد، وهي ترد بصوتٍ خفيضٍ نوعًا: وأنا أيضًا كما لابد أنك تعلم.. كلانا نصف كما يحب أهل هذا العالم الغريب تسميتنا!

طال نقاشهم، وفاتت مُحاضراتهم. مع الوقت بدأ الجمع يتآكل، حتى لم يتبق سواهما في حديقة الجامعة الخاوية ذات الأوراق الخضراء المُذهبة أطرافها بشمس العصر. وكانت مُناوشتهما الأكاديمية، وأرضيتهما الروحية المشتركة بداية في نهاية تشييد جسره إليها.

منذئذ تكررت لقاءاتهما، أسفل ربيع الدنيا الذهبي الظليل، وفي ربيع عُمره المُتأخر.

وكانت كلمة (أُحبك) هي سطر الختام في فصل كُلُ منهما المنفرد، واستهلال للحظتهما التالية معًا. إذ حضرت الذكرى بخياله، بينما يتقدم نحوها في زفافهما تحت نفس الشمس العصريّة القادمة من الجنة.

التمع نصف وجهها الفاتح بنور الشمس، واشتغل كستائيّ شعرها وخضار عينيها به. كانت صورتها وبسمتها مُطابقة لليوم الذي ألقى فيه لحنه عليها...

تمنيتكِ قبل أن تأتي إلى الدنيا.. وأحببتكِ قبل أن أراكِ...

كرر عليها عبارته عندما امتثل أمامها في حفلهما، وسط تصفيق الجميع، بمباركة والده الدامع، وفي حضور إعلام عصره المُنتهز لتلك اللحظة التاريخية...

أول زفاف في عصر ما بعد التعديل الجينيّ... بالتأكيد كان حدثًا

يستحق!

نهاية

ارتفع بها إلى قمة هرمه، وهبط معها إلى قاع محيطها. واصلا سلوك قممهما وقيعانهما في مزيج ساحر من الحب والألم والشبق والشجن.. استكشف كل منهما عالمه داخل الآخر.. تبادلا الأنين المُتلاحق، اللاهث، المبهور في رحلتهما...

وعندما استلقى جوارها لاهثًا، شعر بأحاسيسه الجديدة المُختبرة تنطحن في صدره، وللمرة الأولى منذ زمنٍ بعيد طفق يبكي...

ألهبت حممه عينيه، ولم يبالِ. كان يبكي ونشيجه يعلو. فلم تملك إلّا أن تطلعت إليه في ظلام الغرفة بصمت حنون، ومسحت دموعه بأناملها الرقيقة. خدرته أناملها، فصمت نشيجه، إلّا أنه لم يملك أن يوقف نزيف دموعه المنهمرة.

وبكل ما يملك من طاقة الحُب، بكل ما عاناه في تلك الحياة، همس بها، بينما التعب يهيمن عليه فجأة: لم أعد نصف.

فأومأت مُبتسمةً صامتةً، وهي تتحسس بطنها بيد مرتعشة آملة.

أضاف بينما قلبه يرتعش، وصدره يحترق، وأنفاسه تحتضر أمام وجهها المصدوم الملتاع: بكِ صرتُ كاملًا...

شيطانُه

-١-

خارج المترل، ساهمًا، وقفتُ.

كان الحنق قد بلغ مني الحلقوم، فأصابني بغصة مؤلمة. تآمرت مع الرطوبة الخانقة، والظلام الرماديّ المُعبق بها في إحالة اللحظة إلى أقسى ساعاتي استفزازًا.

زفرتُ محاولًا دفع الأكف المظلمة الثقيلة عن صدري، وعبثتُ بجيبي مُخرجًا عُلبة سجائري. لم تكن لدي أيّة رغبة في التدخين. ورُغم ذلك التقطتُ واحدةً، وأشعلتها، ماصًا كل ما يستطيع شهيقي المكدود مصه من الدخان.

تألقت ذبالة السيجارة فبدت كأنما تستمد لهيبها من لهيبي المستعر داخلي.

هبطتُ بجسدي على الأرض العُشبية، المنكمش أخضرها خلف الضباب، ونظرتُ فوقي مُستقبلًا القمر المُختنق بزغب السحب القليلة كالحُلم.

هتفتُ وكفي يضرب جبهتي اللزجة: اللعنة!

ارتبكت خواطري أكثر، إثر الضربة، والكلمة. ووجدتني أضيف كمجنون: متى سأتعلم؟! لماذا الإصرار على إفساد كل شيء بهذا السخف!

سمعتُ خبطات على سلم المترل، قادمةً خلفي، لم تلبث أن أتت على العشب، ثُم هبط ظلها جواري، قائلًا صاحبها بصوت مُتردد: أبي...

أطفئت سيجارتي على الفور في العشب، وألقيتها بعيدًا، رافعًا رأسي إليه برهة. ثُم خفضتها قائلًا: تعال يا (إبراهيم).

لّما رأيته، اشتد غضبي المكتوم ليسحقني من الداخل؛ فصمتُ حتى لا أنفضح.

قال (إبراهيم) باندفاع لم أعهده منه: متى ستكفان عن ذلك؟!

حاولتُ أن أُحرك لساني لأخبره بكذبة تُريحه، فأبى إلّا أن يلين للصدق: الشجار بيني وبين أمك يا (إبراهيم) ليس كرهًا إذا تصورت ذلك.. إنه أسلوب حياة.. كما يقولون دائمًا الشجار هو ملح الزواج.

السخرية بصوته البادئ بالقهقهة، ثُم بالحدة، واصل إدهاشي وإثارتي: بل إنه بتلك الطريقة إلى السُم أقرب!

وأضاف بلهجة أهدأ، عندما واجهته بعيني المُحتدة: منذ وعيتُ الدنيا وأنتما تحتدان بتلك الطريقة.. تفعلانها مختبئين خلف غرفة مُغلفة.. كأنما سيعزل بابها صوت صراخها وصراخك.. حتى إنني و(علياء) كُنا ننظر إلى بعضنا بعيون مرتعبة عندما تأتي مُنهكًا من المعمل.. كُنا نعلم أن مجيئك القليل أصلًا سينتهي حتما بكارثة معتادة، ولا تحدثني أرجوك عن جلسات خبراء الأسرة للتخفيف من وطأة الأمر علينا.. خاصة عندما كانت تهدد

أمي بالطلاق، والرحيل في فورة غضبها.. أقولها لك يا أبي بكل صراحة وصدق (لقد سئمت من ذلك.. بل سئمنا!)

ارتفعت نبرته في عباراته الأخيرة، لتصفعني، فابتلعت ريقي مُحاولًا تهدئته، مُشفقًا: أعلم مدى قسوة ما مررتم به.. صدقني يا (إبراهيم) أعلم ذلك جيدًا.. المشكلة الأساسية فيّ.. أعترف لك بذلك كما اعترفت لأمك أكثر من مرة في فترات الهدنة بيننا.. عملي السابق في المؤسسة كان يشحذ عقلي، وكياني كله في الأبحاث.. حققتُ نجاحات متتالية، ورآني الجميع بصورة العبقريّ، ولم يتصور أحد كيف أن ذلك النجاح يكلف الكثير.. الكثير جدًا.. من عدم صبر على مشاكل الأسرة، وتحويلها لمُجرد مشاكل تافهة لا تحتاج إلى تدخل.. ومن تقلبات مزاجية مستمرة تجعل الكلمات المُعاتبة البسيطة تبدو كسياط تجلد جسدك المشحون أصلًا.. ومن حضور بعقل خاوٍ بين النزهات البسيطة التي قمنا بها.. ذاك جحيم حقيقي كُنتُ ضحيته ومُتهمًا به في نفس الوقت!

شعرتُ بالراحة أخيرًا من إفراغ كل ما اختزنته نفسي المكبوتة، وازداد العرق كثافة بين ثناياي، وبالرُغم من ذلك بدت الرؤية أمامي أكثر وضوحًا، كأنما انسحب جزء من الرطوبة بالجو إلى داخلي في مهمة إطفاء.

في الضوء الخافت، لمحتُ (علياء) فجأة على يساري، فنظرتُ لعينيها الزرقاوين نسبةً لأمها، والمحتقنتين ببكاء جفّ، وابتسمتُ مُضيفًا أمام صمتهما: لا تتصوران أبدًا الشقاء الذي عانيته من أجلكما.. بالتأكيد كُنتُ أبًا سيئًا ومازلت.. لكن ربما يكون في رصيدي القليل لديكما ما يسمح بأن تغفرا لي.

ومسحتُ على شعر (علياء) المُسترسل، مُضيفًا بصوتٍ يختنق بدموعٍ قادمة: أعلم أنكما ستُفتشان كثيرًا عن ذلك الرصيد.. ولكم أتمنى أن يعود بي الزمن؛ رُبما تمكنتُ من تعويضكما أفضل مما فاتني.. رُبما تمكنت من تعويضها عن بعض من شقائها من أجلي ومن أجلكما.

ابتسمتُ، وتهدج صوتي أكثر: الحقيقة أنني أُحبها.. أحبها بكل كِياني.. ربما بدا ذلك لكما عجيبًا.. لكنه الحقيقة.. أُقسمُ بذلك.

وعدتُ أنظر لـــ(إبراهيم)، قائلًا بابتسامة مُرتاحة: لو لم نكن مُتحابين يا صديقي.. لو لم نكن.. لكان أحدنا في السجن، والآخر في مستشفى الأمراض العقلية!

ساهمت راحتي في تصفية ضحكاتهما، فضحكتُ من جديد بخفة، وأنا أُطرق أرضًا.

قالت (علياء) بصوتٍ متوسل: هلم يا أبي.. قُم وتصالحا.

وأيدها (إبراهيم) مُشجعًا...

نظرتُ بعيدًا في الحقول الغائبة، وأنا أقول بخفوتٍ حازمٍ: ليس الآن.. تحتاج قليل من الوقت لتتعافى، وكذلك أنا.

وأضفتُ مازحًا: أوتظنان أيها الصغيران أنكما تفهمانها أكثر مني؟!

فابتسما بصمت، ضربته بسرعة قائلًا بانشراح: بما أننا في الإجازة؛ أعدكم بإذن الله برحلة بعيدة معًا بمُجرد أن نتصالح وتستقر الأمور.

عقب (إبراهيم) ضاحكًا: المشكلة أن الأمور لا تستقر أبدًا يا أبي.

فابتسمت ساهمًا، ومُجيبًا بكل ما أملك في قلبي من صدق: بإذن الله

ستستقر.

ورددتُ العبارة مُجددًا في شرود: بإذن الله.

-٢-

إلى معملي، تركتهما...

كُنتُ قد شيدتُ معملي مُلحقًا بالمترل، والذي ساهمت مؤسستي في إنشاءه؛ تقديرًا لخدماتي الجليلة لاسم المؤسسة وللعلم الإنساني. هكذا تظل عجلة الكشوف العلمية تستمر حتى بعد التقاعد، وليتم إدراج اسم المؤسسة في الخلفية الأكاديمية لذلك الكهل المتقاعد نظريًّا، القريب من الفوز بالجائزة الكونيَّة الأولى في التفوق العلمي؛ حرصًا على ازدهار اسمها التُجاري أيضًا ولتُضخ المزيد من الأموال في خزائنها.

بالتأكيد لا يمكن أن تتحمل المؤسسة خسارة شخص مثلي، وبالتأكيد لا يستطيع شخصي الحياة دون تفكير مستمر، وشغف متواصل لا يهمد بعلمه. لذا كانت الصفقة ناجحة جدًا.

بعد عملي المستمر طوال أكثر من ثلاثين عامًا في مجال أبحاث نظرية الأوتار الفائقة •، واقترابي من تحقيق حُلم اكتشاف الأبعاد الأخرى، كان

•نظرية الأوتار الفائقة: هي أفكار حول تركيب الكون من إبداع الفيزياء النظرية، تستند في صلبها إلى معادلات رياضية معقدة. تقول هذه النظرية أن المادة مكونة من أوتار حلقية أو مفتوحة متناهية في الصغر لا سُمك لها. هذه الأوتار تتذبذب، فُتصدر نغمات يتحدد بناء عليها طبيعة وخصائص الجسيمات الأكبر منها، مثل البروتون والنيوترون والإلكترون وغيرها.

على المؤسسة أن تطرح عليّ مجموعة شبان رائعين لمُعاونتي في إنهاء الأمر. لكنني رفضتُ بكل ما أوتيت من القوة، فرغم أننا نعمل دائمًا في فرق بحثية يرأسها أستاذ كبير. إلّا أن الأمر في رأيي لم يكن يحتاج إلى فريق. أو كما قلتُ لمُدير المشروعات الأستاذ (صبري): الأمر برمته يتلخص في شخصي.

ثُم أضفتُ شارحًا: يا (صبري).. قد تسخر من كلماتي لكنني أقول ما أشعر به.. لستُ في حال تسمح بأن أُعلم أطفالًا جُدد.. لدي ما يكفي من ذلك!

قال بهدوئه البارد المعروف عنه: ولكنه تقليد أساسي في كل أبحاثنا التي يُديرها خبراء مثلك.

هززتُ رأسي بينما لازال يتلو قواعده عليّ، لوحت بيديّ مُجيبًا: أعلم.. أعلم كل ذلك.. لذا أنا أحدثك بواقع العِشرة بيننا.. لدي ما يكفي من المشاكل.. ولستُ في حمل تشتيتي بصبيان جدد يساعدونني الآن.. لقد أتممت مشروعي كله تقريبًا بين جدران هذا المكان بمشاركة

وتكمن ميزة هذه النظرية في أنها تأخذ في الحسبان كافة قوى الطبيعة: الجاذبية والكهرومغناطيسية، والقوى النووية، فتوحدها في نظرية واحدة، تسمى النظرية الأم. الكون في تصوُّر هذه النظرية هو عالم ذو عشرة أبعاد (إحدى عشر بُعد في النظرية الأحدث-M theory)، على خلاف الأبعاد الأربعة التي نحس بها (الطول والعرض والارتفاع والزمن). ويقول أصحاب هذه النظرية بأن الأبعاد الأخرى متكورة على نفسها فهي غير محسوسة لنا.

مجموعة رائعة من الشبان.. تبقى فقط الرتوش الأخيرة التي أود العمل عليها بنفسي دون إزعاج.

وألقيت ضربة الحسم: ثُم إن الشهرة كلها تؤول إليكم في النهاية.. أليس كذلك؟

تمتمتُ وسط معملي، ردًا على الذكرى التي هاجمتني: بلى.. بلى...

لم يكن المعمل سوى غرفة مُتوسطة الحجم، مقسومة بفعل المُعدات، والأجهزة إلى قسمين: قسم فارغ؛ جدرانه المصقولة الرمادية تضفي كآبة كاسحة عليه، بينما النصف الآخر مكتظ بالمُعدات والأسلاك المُتلاحمة؛ لتنتهي في جهاز (مرآة الأبعاد) الجاثم في منتصف النصف الآخر من الحجرة.

وكان الجهاز خليقًا بذلك المُسمى الذي أطلقتُه عليه، إذ كان عبارة عن عدسة خاصة ضخمة، بحجم سيارة صغيرة، تستند على حوامل فولاذية، وخلفها كرسي مُرتفع يواجه شاشة الرصد، وحاسوب التحكم.

بجسدٍ مُرهق من المشاحنة السابقة، ومُسترخٍ من اعترافاتي أمام الأولاد، اتجهتُ إلى خلف العدسة؛ لأبدأ عملي، مُغمغمًا بتنهيدةٍ واسعةٍ: ها نحن نبدأ...

دفعتُ الحاسوب لمُراجعة مُعادلات التشغيل النهائية، فأكد سلامتها.

ضغطتُ زر التشغيل، فبدأ الحاسوب تنفيذ أوامر التشغيل، ودفعها رقميًّا إلى العدسة التي تعمل على إطلاق حزم من جسيمات الرصد في أنطقة مُتدرجة من الذبذبات. وكانت خطتي المبدئيّة أن أبدأ بالحزمة التي تحمل أقل طاقة مُمكنة ، والمُسماة بالحزمة (ألف -1).

دارت المُفاعلات لتوليد جسيمات الرصد، ثُم إطلاقها عن طريق العدسة، ثم استقبالها من جديد.

ابتلعت ريقي، وضغطتُ زر الرصد، شغوفًا بأمل الانتصار السريع. آملًا بظهور أيّة أجسام، مُتحركة كانت أو ثابتة، حية كانت أو ميتة في ذلك البعد المخفيّ.

مرّت عليّ دقائق طويلة لم أشهد فيها سوى شاشة خالية، وراصد صامت، وقلب يخفق بأملٍ حَذِرٍ.. ثُم بيأسٍ مؤقتٍ متصاعدٍ.

ولّما طالت الدقائق إلى ساعة، آثرتُ أن أترك الجهاز يعمل أطول فترة مُمكنة. فهو يبحث في إطار مكانيّ موسع في ذلك البُعد بأيّة حال. لذا تأكدتُ بالاختبارات ومن الشاشة أن كل شيء يعمل على ما يُرام، وتحركتُ من خلف الجهاز مُتجهًا إلى الخارج عبر بابي المُغلق على اليمين.

كان وقع أقدامي الوحيدة المخذولة يضرب في كياني أكثر من ضرباته على الأرض الصلبة، وشطح خيالي لذكرى (ريهام)، مُساعدتي السابقة النشيطة الرائعة.

أين أنت الآن بوجهك الطفولي الصبوح الذي كان يُمدني بما يحتاج إليه قلبي الرماديّ -كشعري- من الأمل بعد كل إحباط .. وبـــ..

فجأة، أصدر الجهاز صفيرًا خافتًا، نفض جسدي معه نفضًا، وأيقظ ذرَّاته التي كان الخدر والكسل قد احتلها. أسرعتُ مُجددًا إلى الشاشة خلف العدسة، وبدأتُ أبحث عن ضالتي المكتشفة، فلم أجد.. أمرتُ الجهاز بأن يُعيد تسجيل الدقيقة الفائتة من ذاكرته، فهالني ما رأيت.

كان ما رأته العدسة لتُخبر شاشتي به مرعبًا. أهو وصف صحيح؟ أم

أن اللغة صارت أمام مخيلتي الآن قاصرة للغاية على وصف ما شعرت به أمام ذاك الهلام الذي رأيت؟!

بالفعل كان هُلامًا. لا يحمل شكلًا مُحددًا؛ فهو دائم الحركة والنبض، وكان لونه عجيبًا يختلط فيه الأخضر بالبنيّ بالأسود، فيصيب البدن برعدة تقزز، إذ ترتبط الألوان المختلطة تلك بلون الذباب.

أما الأكثر إثارة، أن ذاك الهلام قد انبثق فجأة من العدم...

وأما الأكثر رُعبًا؛ أن مصدر إفراز الهلام –بعدما قارنتُ تزامن بعدنا التقليدي، والبُعد الجديد المُكتشف- كان شخصي المتواضع! تحديدًا من مؤخرة رأسي!

-٣-

بخُطى مرتعشة، عبرتُ الممر...

أسرعتُ في المسافة المحدودة بين معملي والمترل، وعيناي تترددان بين الظلام البنفسجيّ حولي، وباب المعمل المُصمت خلف أكثر ما واجهني في حياتي العلمية رُعبًا.

لم أكن من الذين تهتز نفوسهم كثيرًا بظلال الرعب في الحياة التقليدية، رغم وفاة والديّ في سنٍ مُبكرٍ. إلّا أن تربيتي القاسية – العسكرية نسبة لأبي- صنعت من قلبي صخرة تحطمت عليها موجات الحياة بكل ما تحمل من رعب واقعي مُستمر. أعترف أنني لم أهاب شيئًا من قبل إلّا بعض مخاوف الطفولة التي لم يلبث كِياني أن كسحها بعيدًا. لكن موازيني التي خفت في كفة الرعب، كانت ثقيلة للغاية في تقلباتي

المزاجية، وعصبيتي المُستمرة خارج حياة العلم، والتي كادت تُدمر زواجي أكثر من مرة، خاصةً عندما يُضاف إليها عقلي المشحون اللاهث خلف سراب أحلامي العلمية الهاربة دومًا.

إلّا أن المفاجأة الآن تدهمني في مجال خبرتي، رُغم أنني لا أجد ذلك سببًا كافيًا للقشعريرة التي زحفت —ولا تزال تفعل- على ظهري، إذ تصطدم عينيّ بالهلام الذبابيّ المُرعب. أهو منظر الهلام السبب؟ لا أدري...!

تشبثتُ باستعاذة الله من الشيطان الرجيم. وأنا أصعد السُلم القصير، وبأصابع مرعوشة، كتبتُ شفرة الباب، ودلفتُ إلى المترل مُغلقًا الباب دون إبطاء خلف وهم يطاردني في الظلام.

كان أهل البيت قد ناموا كما لابد لي أن أتوقع ، فتحتُ أقل الأضواء صخبًا وجلستُ على الأريكة مُستمعًا لقلبي الراكض في مكانه، مُتذكرًا نبضات الرعب التي بثها فيّ، بينما أتأكد مرة وثانية وثالثة ورابعة أن الانبعاث الهلامي كان مصدره الأول والأخير والوحيد: أنا!

عجز عقلي المُحتقن في مجاراة ركضات قلبي لبدء آليات التفكير المنطقية. هل أنام؟ دفعتُ عضلاتي الواهنة بالتوتر إلى الطابق العلويّ، حيثُ غرفة النوم .

حدقتُ بوجه (إسراء) النائم، وأنا أخطو على أطراف أصابعي المُتقلصة، فساعدني ذلك على استعادة بعض من جأشي المقطوع. قمتُ بتغيير ملابسي، واندسستُ جوارها، واضعًا وجهها قبلة أمام ناظريّ. وبعينين مُتجمدتين خاطرتُ عينيها الغافلتين المُرتعشتين بالأحلام: أنا

آسف يا (إسراء).. للمرة المليون آسف، يا حبيبتي.

فتحت جفنيها فجأة بتكة مسموعة، وحدقت بي عيناها الزرقاوان في الضوء الخافت باتساعهما. ورأيتُ وجهها يتقلص في رعب دفع الجليد إلى مؤخرة رأسي، بينما أرى ظلالًا تتحرك من خلفي .

من موضع الشعور الثلجي برأسي، برزت الكتلة الهلامية الصدئة لتزحف على عنقي كثعبان خبير، ثم تمددت لتقفز إلى عنقها تطوقه، عائدةً في دورتها لتُحيط بعنقي، وتشرع في اعتصارنا. فالتصقتُ بـــها، ودوى صراخنا.

اندفعت الصرخة إلى فمي من قلب الكابوس، فاستيقظتُ والنهار جليًّا.

كانت (إسراء) قد استيقظت، ووجدتها تُسرع إلي عبر الباب بجزع قائلةً: (أيمن) ماذا هناك؟

أجبتها بأنفاسٍ لاهثةٍ وحلقٍ جافٍ، بينما العرق يتفصدني: لا شيء.. لا شيء.. مُجرد.. كابوس.

نظرت إليّ تلك النظرة التي طالما أحببتها بينما تميل بوجهها بعض الشيء، ثُم تقترب مني جالسًا على السرير قبالتي: ماذا الذي يُصر هذا الرأس على حمله؟! متى سنستمتع بيوم كامل من الصفاء دون أن يتدخل فيما لا يعنيه؟!

كانت تبتسم، وسبابتها موجهة إلى جبهتي. فهبطت كلماتها عليّ كالبرَد، وقلتُ بصوت أخشنه النوم، وبابتسامة واسعة: هذا الرأس يعمل على وضع نهاية لمشروعه في أقرب وقت مُمكن؛ ليعتزل العلم ويحاول أن

يحيا حياة طبيعية.. معكم.

وأضفتُ مُستمتعًا بوجهها الذي أمقته حينما نتشاجر، وأعشقه حينما نتهامس: معكِ.

هزت رأسها مُبتسمة ثُم تنهدت:

-كاذب.. وددتُ لو أصدقك.. لكن ماذا عساي أن أقول؟!.. سيجد عقلك هدفًا جديدًا يطارده.. على من تضحك؟!

هززتُ رأسي بلا أيّة انفعالات: قلتُ أحاول.. ربما أنجح هذه المرة.. أليس كذلك؟

قبلت رأسي، وهي تجيب بشك: رُبما...

وقامت مُضيفة -كأنما لم نجر هذا الحوار القصير-: هلم أيها الكسول.. سأقوم لتحضير الفطور.

أجبتها وأنا أهم بالنهوض: شكرًا لكي يا حبي.. لا داعي.. ليس لدي شهية الآن .. عليّ أن أقوم إلى معملي.. لأنهي عملي كما وعدتك.

ضحكت بسخرية تحمل بعض المرارة: أرأيت؟! لا أمل منك!

فأشرتُ لها بالصمت، ووضعتُ كفي على فمي، هارعًا، أمام هزات رأسها اليائسة، إلى حمامي.

تحت زخات الماء، انتعشت أفكاري ودفعت برودته على جسدي ذكرى ساعات الرعب الماضية، وطاردني السؤال الباحث فيّ عن الجواب كاللعنة.

ما الذي كشفته الأمس؟!

ثُم وأنا أداعب (علياء)، وأمزح مع (إبراهيم)..

ماذا كشفتُ بالأمس؟!

ثُم وأنا ذاهبٌ وسط قيظ (أسوان) إلى معملي، عبر مزرعتي الصغيرة حول المترل.

(مـــا الـــذي تـــكـــشّـــف لـــــي الـــلـــيـــلـــة الـــمـــاضـــيـــة؟!)

همست بالعبارة من جديد وأنا خلف العدسة في معملي، مُراجعًا تسجيلات الليلة الماضية مرة بعد مرة.

لم أجد جديدًا. فقط ما مررتُ به أمس من الهلام الكابوسي المنبعث من شخصي المُتواضع مازال راسخًا في الواقع، لم يكن وهمًا كما حاولتُ إقناع نفسي في الصباح على السرير.

اندفع في خاطري بريق فكرة ما؛ فأعدتُ تذكير نفسي بما فعلتُ أمس بالتفصيل قبيل مُغادرتي.. لم يكن الكائن يبرز مني باستمرار. فقد كنت أتحرك أمام العدسة، عندما.. لم أفعل شيئًا فعلًا.

بلى فعلتُ، كُنتُ أفكر في (ريهام) مُساعدتي السابقة!

أهو كائن مُرتبط بالتذكر؟ مُرتبط بالحب؟ أم بشيء آخر؟ !

لا أدري.. ولكن كل شيء -كما خبرتُ- قابل للتجربة والاختبار للوصول إلى أسبابه ونتائجه ليس بالأمر العسير أن...

بينما العدسة تعمل، قمتُ من مكاني مُسرعًا أمامها، وطفقتُ أتذكر...

ذكرى النجاح الأول؛ حصولي على الجائزة العلمية التشجيعية. انتشاء الانجاز.. النظرات البراقة السعيدة منها والمُغتبطة أسفل المنصة، والنظرات المُشاركة المُحمسة فوقها.. الشعور بقلبي يكاد يقفز ليلامس السُحب رُغم طعون عقلي المستمر المُتشككة: لم تُحقق شيئًا.. ورُغم حزني وندمي أمام عيون (إسراء)، والأولاد أنني لم أشاركهم بما فيه الكفاية.. كانوا فرحين وفخورين بنجاحي لكني لم أفرح، ولم أفخر بالحد المطلوب مني كأب في نجاحاتهم.

عدتُ إلي كرسيّ خلف العدسة، وراجعتُ التسجيلات؛ فلم أجد ما انتظرتُ.

بلا كلل، وقفتُ من جديد أمام عدستي.. وبدأتُ أتذكر...

ذكرى حبي الأولى؛ أنا و(إسراء) أمام البحر الفيروزيّ جالسين على الرمال الساخنة الذهبية، والهواء يداعب وجهينا. أنظر إلى شُقر وجهها الناضر، وعينيها الزرقاوين وشعرها الكستنائي، فأرى في الأزرق والوردي والكستنائي ألوان وطني. أربت على وجهها.. ثُم التقط يديها برفق.. وأنظر إلى فيروز البحر. نحن أمام العالم.. سنقهره بلا أدنى شك.

رجعتُ من جديد إلى كرسيّ وتابعتُ التسجيل.. فلم يجد جديد.

طعنني الخيار الأخير المُتبقي، ووجدتني أجر قدميّ في خجل إلى عدستي كما لو أنني أمام قس اعتراف.

كان ذلك الأشقى، والأصعب من كل مراتي السابقة. عليّ الآن أن أتفكر في سخافاتي...

(أنت لا تعيش وحدك.. حاول أن تتذكر ذلك!)

كان ذلك صراخ (إسراء) في ذاكرتي، عندما كانت تحكي عن إحدى مشاكلها الأخيرة في الكلية، والتي أدت بها إلى الاستقالة؛ فما كان مني إلى أن قابلتُ شكواها بشرودي وعصبيتي المُعتادة.

وصحتُ أمام صراخها الغاضب: أنتِ تعلمين.. لدي ما يكفيني من المشاكل.. البحث...

فقاطعتني: اللعنة على أبحاثك.. ألف لعنة!.. متى ستتذكر أن لديك زوجة، وأولاد يحتاجون إليك!.. إنك تُعاملنا كأنك أعزب في الأربعين !

إن كُنت تحب علمك إلى هذا الحد لِمَ كان زواجنا في الأساس؟!

قلتُ لها بكلماتٍ بطيئة عبر حلقي المُحترق: تعرفين أنني أحبكِ.

صرخت بوجهي مُحتقن: كذب!.. على الأقل ليس بقدر أبحاثك! وعلمك!

صمتُ وتركتها بالغرفة خارجًا، سامعًا صياحها يطاردني كالكابوس: اهرب كما تفعل دومًا.. اهرب إلى عملك اللعين!

فأصيح بوجهٍ مختنق، وأنا أعبر الباب خارجًا:

لستُ أهرب.. فقط أتركك حتى تهدئين!

ثم تأتي في خيالي (ريهام).. بوجهها المسحوب الشاب، وعينيها الآسرتين، وشفتيها الـــناضجتين.. حبي السريّ ونزوتي التي طالما انتظرت أن تهبط في أحضاني. كانت الحُلم وسط كابوس حياتي المستمر بين عملٍ مُنهكٍ وبيتٍ بعيد المنال.

انتبه قلبي الخافق بمزيج من الغضب والعصبية من ذكرى (إسراء)،

وإغراء حُلم (ريهام) على صفير الجهاز المُتقطع.

بخُطى مُرتجفة، وصلتُ أمام شاشتي وتابعتُ تسجيلاتي. فتراءى أمامي وحشي، يبرز من خلف رأسي بنفس حركاته اللزجة، وألوانه المقززة الخبيثة.

إثر المشهد، اندفع الخاطر إلى قمة رأسي كشهاب من نار.

أيكون هذا هو شيطاني؟

-٤-

أمام الشمس الغاربة المُحتضرة، والهواء البارد المُعزّي، وقفتُ.

بينما عقلي يكرر تساؤله المُتكرر طوال اليوم، ويفرزه لساني المُنفلت في بعض الأحيان: أيكون هذا هو شيطاني؟!

وكالجهاز المعطوب كان عقلي يُعيد إجابة السؤال بذات الإجابة: أجننت؟!

أنت -رجل العلم- تخبرنا بكل بساطة أنك قادر على اكتشاف الشياطين بجهازك؟! يبدو أن الشيخوخة قد أكلت من عقلك وشربت بالفعل!

فأجيب والشمس تواصل هبوطها في سماءها البنفسجية: ولم لا؟! قيل دائمًا أننا لا نستطيع رؤية الشياطين بالعين المُجردة.. وأنهم يسكنون حولها. لذا لابد أنهم بالفعل يسكنون في بعدٍ موازٍ. كما أن لكل امرئ شيطانه. لذا نجد الأمر غاية في المنطقية رغم غرابته. أظن أنني أمام

شيطاني، الذي ينشط ويُنشّط بالتأكيد نزواتي وخطاياي. فهو عامل وساوسي ونزواتي الحفّاز.

استرددتُ بصري خلف تساؤلي المُتردد. فبدا -أمام العالم البنفسجي من حولي، والظلال العابثة في الحقول، ومنمنمات السُكان البعيدين عن المنطقة، والقمر المستمد الحياة من الشمس الميتة، والنجوم المتلألئة كالماس المُشع- بالغ المنطقية بل ومُتماشيًا مع الجنون المنبعث من سحر المشهد.

إذا كان الأمر كذلك. وقد تأكدنا بنسبة كبيرة أنه الشيطان. فلم لا نبدأ في مُحاولة ترويضه؟! من المنطقي أن أحاول عزله. ربما سيؤدي ذلك إلى كشف تاريخي يقفز بي إلى مصاف علماء العصر. لا بل كل العصور. نحن نتحدث عن ذلك الكائن الذي أخرج آدم من جنته، الذي أهلك وأذل الجنس البشري طوال تاريخه. بإيعازه قتل قابيل هابيل، وسلك مسلكه أحفادهما.. بخبثه شاع الكذب، وحب المال والسُلطة والجنس، بشهيته أكل الأخ لحم أخيه ميتًا. تحت مظلته انتهكت الأعراض انتهاكًا، وبات الرياء هو القانون.

المسألة كلها في الذبذبات.. عليّ أن أعمل تطوير جهاز يعيق الشيطان في بعده عن الوصول إلينا، هُنا تكمن العبقرية، وهُنا يكمن الإنجاز التاريخي...

همستُ لنفسي مُبتسمًا: سنصير عالمًا من الملائكة.. ستكون قفزة هائلة في تاريخ البشرية؛ فلأول مرة سيعمل الجنس البشري كله تحت مبادئ الأخلاق التي فطرها الله فينا.. ليست مهمتي البحث فيما قد يحدث بعدئذ.. ليست مهمتي البحث عن هدف عالم من الملائكة على الأرض.

ابتلعت ريقي وأضفتُ في الظلام الحال: لستُ فيلسوفًا وقط لم أحب الفلسفة، لكنني أشفق على أهلها.. ستكون مهمتهم ثقيلة عندما أنهي مشروعي، وعندما ينجح بالقدر الذي أريد.

التفتُ مُتحركًا إلى المترل، مُفكرًا أن الوقت مازال باكرًا على إخبار أحد –حتى زوجتي– بما وقع تحت يديّ .

–٥–

أسبوع كان كافيًا للانتهاء.

أسبوع لا أذكر خلاله مروري بأحداثٍ هامة تُذكر، وحتى لو وُجدت تلك الأحداث الهامة، لكان على كياني السارح المسحور بمهمتي الجديدة الأسطورية ألّا يلتفت لها.

كُنتُ أقوم بإحكام غلق الغطاء المرن لاختراعي الجديد، بينما أزفر في سعادة النهاية السابقة، وفي توتر البداية المُقبلة المُقلقة.

تأملت الجهاز الأسود اللامع، الأشبه بتميمة سميكة، يُمكن ارتدائها في سلسلة عنق أنيقة. جهاز كهذا كان يُمكن أن تستغرق صناعته شهورًا عديدة بتقنيات الزمن القديم. أما الآن فلا يتطلب الأمر أكثر من معمل مترليّ صغير وبضعة أجهزة مُتطورة خاصة أمدتني إياها المؤسسة؛ ليكون لديّ اختراع العصر.

ابتسمت في غبطة.. بينما أُخرج السلسلة وأدفعها في عروة الجهاز.

إذا نجح الجهاز، يمكننا –فيما بعد– إطلاق تلك الذبذبات الخاصة عبر أقمارنا الصناعية في الفضاء، فيكون لدينا فيض مستمر أبديّ، يعزل شياطيننا عن أرضنا!

أما الآن، فلنجرب..

رفعت السلسلة فوق مستوى رأسي، وشرعتُ في ارتدائها .

عندما عبرَت رأسي إلى أسفل نحو عنقي، كان شعوري غريبًا –أو هكذا خُيل إليّ.. كأن خدرًا لذيذًا ينتابني من شعر رأسي، ساريًا مُتدفقًا إلى أخمص قدميّ.

وقفتُ أمام عدستي الأثيرة، مُركزًا، ومُنتظرًا نزغ شيطاني...

وصحتُ بجذل: أين أنت الآن؟! هاه؟!

دقائق طويلة، باردة وحارة، انتظرتُ خلالها إغواءه، فلم يستجب.. ثُم أضفتُ بنشوة: أو ربما حاولت و لم يستجب لك جسدي وروحي!

وجدتني أضحك كما لم أضحك من قبل.. هممتُ مُتحركًا إلى شاشتي، فوجدتها ببياض الثوب الأبيض؛ لا دنس فيها.

الآن يمكنني أخذ استراحة...

أغلقت جهازي بينما ابتسم براحة لم اختبرها منذ كُنتُ طفلًا، ثُم توجهتُ إلى مدخل معملي، أطفأتُ أنواره، وعبرت بابه مُغلقًا المكان خلفي.

هرعتُ –ربما لأول مرّة في ساعة مُبكرة من شمس الظهيرة– إلى مترلي. كانت (إسراء) تعكف على حاسوبها، بينما كان (إبراهيم) و(علياء)

بالخارج حسبما يبدو.

دنوت منها، فرفعت رأسها عن الحاسوب، وقالت بحاجبين مدهوشين كصوتها: يا للمصادفة السعيدة!.. العالم الكبير (أيمن نبيل) أمامي في هذه الساعة المُبكرة!.. ماذا جد يا تُرى؟!

ضحكتُ بصفاء أدهشني وأدهشها مُجيبًا: ربما لأنه لأول مرة مذ فترة طويلة يشعر أن عليه الراحة فعلًا...

ثُم أضفتُ جالسًا جوارها في سلام: يشعر أنه على وشك إنهاء رحلته العلمية.. ولابد على الأقل أن يكافئ زوجته التي ساندته دومًا على ذلك...

واقتربتُ من وجهها المُحدق بي، لم يفق من صدمته بعد: هل لديها مانع؟

وجهت بحر عينيها إليّ، قائلةً بنبرة مرتفعة: أنت تمزح بكل تأكيد!.. ماذا جرى لك اليوم؟!.. جُننت؟!

فتنحنحتُ بنوع من الحرج المشبوب باعتذار: بل يبدو أنني في طريقي إلى التعقُل.. أو ربما هو الجنون فعلًا كما تقولين!

قمتُ قائلًا: هلا تُحضرين حقائبك لننطلق إذن؟!

انتفضت قائلةً : إلى أين؟!

أجبتها مُبتسمًا: مكاننا المُفضل.. البحر الأحمر.. وحدنا .

ضحكت، فرنّ صوتها في أذنيّ كما لم يحدث منذ زمن، ثُم قالت مُندفعة إليّ: أنت تعود إلى صوابك بالفعل.. متأخر جدًا!

وتعانقنا بحرارة، بينما تُضيف بصوت مُرتعد ورأسها على كتفي: لكن أفضل من ألا تفعل أبدًا.

ضربت لوح كتفيّ بمزيج من الدلال والغيظ، وشعرتُ بدموعها الساخنة تهطل على كتفيّ المُتيبسين من طول العمل؛ فتزرع الحياة فيهما مُجددًا.

-٦-

أمام بحرنا الفيروزي، أعاد الزمن ذاته.

جلستُ وهي جواري، نتأمل كُتل الماء الشفافة المُتلاطمة، والملح ذائبًا فيها، تحوي داخلها حيوات وعوالم كامنة، وتنعكس على سطحها زرقة السماء.

نظرتُ إلى وجهها، فلم يبدُ لي أن السنون قد مرت، بل شعرتُ أننا نبدأ من جديد، على نفس الرمال الذهبية.

قالت وهي تتأملني: ماذا الذي جدَّ يا (أيمن)؟.. كيف صرت هكذا؟

(لا تودين أن تعرفي حقًا.. ستعرفين لاحقًا يا حبيبتي)

أجبتها بهدوء دافئ رقراق ، لم أبلغه قط قبلًا ، وعيناي على البحر: لا أدري.. رُبما أنني سئمت فعلًا كل ما أفعل.. سئمت من خطاياي المُتكررة.. وأحاول التكفير عنها.. سئمت كل هذا اللهاث وأنا أجركم

خلفي.. آن الأوان أن نرتاح جميعًا من هذه الرحلة.

أطرقتُ لحظة، ثُم أضفتُ: إنني فقط أحاول تعويضك.

قالت وغصة تطعن صوتها: لا تتحدث هكذا.. إنك تذكرني بأبي.. قال لنا ما يُشبه ذلك.. ثُم لم تمض أيام إلّا وقد رحل عن دنيانا.

ثُم أضافت، وهي تُدير وجهي إليها، كان وجهها مُخضبًا بغصة أزعجتني: قلبي يحدُسني.. شيء ما سيقع.. أرجوك يا (أيمن) إذا كان هنالك شيئًا.. أخبرني.. أنا زوجتك وأفهمك أكثر منك.

فابتسمتُ بارتباك قائلًا: لا شيء يا (إسراء).. وبإذن الله لن يحدث شيء.

عبرنا لحظات اليوم بنفس الصفاء المُدهش الذي تلبسني مع استقرار السلسلة العازلة حول عنقي. وفي الليل، أمام الفيلا المُطلة على البحر، جلسنا نتناول العشاء على الأضواء الناعمة.

قالت أمامي في الضوء الخافت، مُبتسمة: لازلت أنتظر.. متى سنتشاجر.. سيقتلني الملل إن لم نفعل!

فأجبتها بذات الوجه بعد ازدردا قطعة اللحم: أنتِ عانيت كثيرًا من تقلباتي المزاجية، ولهاثي نحو التفوق.. الآن أنت تسعين نحو ذلك التقلب بكل ما أوتيت من قوة!

فنَظَرَت إلى الظلام المُحيط بنا، وهو تقول: رُبما...

تمتمتُ بالعبارة من جديد، بينما أميل برأسي إلى الأمام، مستندًا على ذراعي، ويداي تعبث في سلسلتي بشرود.

سمعتها تهتف فجأة: نسيت أن أسألك.. ما هذا؟!

انتبهت إليها، فوجدتها تُشير إلى السلسلة التي تُتدلى من عنقي تحت ملابسي.

أجبتها، مُبتلعًا ريقي: مُجرد سلسلة.

-مُجرد؟

تنهدتُ وأومأت برأسي، دون أن أُضيف شيئًا. فرمقتني بنظرة قلقلت روحي: ومن يا تُرى الذي -أو التي- أهداها لك؟

فأجبتُ سريعًا: اشتريتها بنفسي.

ظلت ترمقني بتلك النظرة، قائلة بعد صمتٍ طال: أجبني بصراحة يا (أيمن).. ما أخبار (ريهام)؟

انتشر تنميلٌ عجيب في جسدي، ظللتُ مُحدقًا بوجهها الذي ترقص عليه، هاتفًا بصوت حذر: ومالي بها؟!

أولًا يُعد ذلك كذبًا؟! إليك عني أيها الشيطان اللعين.. ألبث هناك في برزخك البعيد.. لا يمكنك الاقتراب!

هزت رأسها بعصبية: لا تظن أنني كُنتُ مغفلة.. أعلم بأمركما الذي لم يتطور.. علمته جيدًا من همساتك في أحلامك بها!

ولوحت بذات الانفعال: أنت تنسى أنني أجيد قراءتك.. أكثر من ذاتك.

ثُم أضافت وهي تُشيح بوجهها بعيدًا: لا أشعر بالاطمئنان من هذه الرحلة.. كأنها رِشوة ما.. أو محاولة لصرف نظري عن شيء ما.

كان مُنحنى عصبيتي وغضبي يتقافز مع كل عبارة ثقيلة تُلقيها عليّ، تُصاحبها طبول قلبي، بصورة لم يعتادها شخصي قبلًا.

-أرجوكِ كُفّي عن هذا.

قُلتها سريعًا بعصبية وغضب محبوس، بينما أضيف لشيطاني: وأرجوك أنت أيضًا.. ابتعد.

قالت ببرود أكرهه: أكف عن ماذا؟!

هنا لم أتمالك نفسي، وقفتُ صائحًا بها: لماذا؟! لماذا تُصرين على تدمير كل لحظاتنا الجيدة؟!

أشارت لنفسها في استنكار مُتعصب: أنا؟!.. هل أسمع ما أسمع جيدًا؟! أنا من يدمر اللحظات الجيدة؟!.. أنسيت التاريخ أم ماذا؟!

بجسد مُتعرق مشحون، شعرتُ بشيء ما يحدث داخلي، شيء مقيت لا أدري كنهه، لكن دفع وقود غضب لم أشعر به من قبل إلى كياني وصوتي: لماذا تمنعينني دائمًا من تعويضك؟! أنت الآن من يدمر هذه اللحظات!

قامت مشيرةً بعصبية: أجل.. لحظة جميلة أدمرها أنا وسط دهر كامل دمرته أنت!

وجدتُ نفسي أصرخ بصوت أرعبني شخصيًّا قبل أن يُرعبها: أنا؟!

تدفق الغضب قويًّا طازجًا في جسدي، ووجدتني اندفع نحو جسدها المُتجمد المذهول، أدفعه بيدي المُطبقة على عُنقها نحو الجدار.

شحُب وجهها المُتقلص المُلتاع، وبرز العرق مُتفصدًا من جبهتها،

وعنقها النابض المُتحشرج تحت يديّ المُتقلصة حوله، وهي تهمس: (أيمن).. (أيمن).. ماذا تفعل؟! ماذا تفعل بالله عليك؟!

صرختُ في أذنها، ويديّ تطوّق عنقها أكثر وأكثر: اصمتي!.. اصمتي!.. لكم تحملت هراءك.. لكم تحملت سخريتك مني ومن إنجازاتي.. لكم تحملتُ شكك المستمر فيّ، لكم تحملتُ محاولاتك المستمرة إضاعة أبسط لحظاتنا الجميلة معًا.. فقط لأنني أحبكِ.. وأكرهكِ لأنك تصممين على تدمير كل محاولاتي لإصلاح الأمور.. اصمتي!

كانت تحاول سحب أنفاسها دون جدوى، وتقاطرت الدموع الساخنة من عينيها.. لتسقط على ذراعي، فكانت أشبه بالفكرة التي ضربت كِياني بعد سكرة غضبٍ لم ينتابني من قبل.

وبصعوبة شديدة، أجبرتُ يدي المُتكلسة على إفلات عنقها، بينما هي تنهار أرضًا وتسعل بعنف شديد. اختلط بُكائها بسعالها، فمزّق نياط قلبي المصدوم.. بينما أقف متجمدًا في مكاني، يلطمني نسيم البحر كأنما يحاول استفاقتي مما انتابني.

عندما انتبهتُ، هرعتُ مُحضرًا كوبًا من الماء، وأنحيت عليها قائلًا بصوتٍ باكٍ: أنا آسف.. آسف يا (إسراء).. لا أدري ماذا دهاني!

ظلت مُنكفئة على ركبتيها، تبكي بعنف، بينما جلستُ جوارها وكوب الماء في يدي، والدموع تسيل من مُقلتي في مزيجٍ من الذهول والحسرة، امتدت ذراعي خلفها لتحتضنها فضربتها صارخة: فيم كنت تفكر؟! كنت ستقتلني أيها الوغد؟!

فيم كُنتُ أفكر؟! اللعنة!

جذبتها رُغمًا عنها، واحتضنتها فلم تلبث أن لانت لي، وطفقت تبكي بعنف أكبر على صدري، لاهثة بكلماتها: بعد كل ما مررتُ به من أجلك.. بعد كل ما تحملته بسببك.. كنت ستقتلني!

بكيتُ معها بحرقة، وأنا أقول: أنا آسف.. آسف.. لا تتركيني أرجوكِ.

التمعت في بالي حقيقة، فأضفتُ بصوت ملتهب بالحنق: تلك هي السبب.

حركتُ يدي الحُرة لأمسك بالسلسلة، ثُم خلعتها بعنف من حول عنقي، وألقيتها أرضًا قبل أن أسحق الجهاز بكعب قدمي.

وكررتُ لها من جديد، بينما تهدأ سويًّا، وأنا أشير إلى الجهاز الأسود المُنسحق كصرصور ميت: السلسلة هي السبب.. لابد أن تكون كذلك!

-٧-

بعناء شديد، وقلبٍ دامٍ، وجسد حائر مُنهك القوى، أقنعتها أن تعدل عن الطلاق. وقد كلفني ذلك قول الحقيقة كاملةً، مُعترفًا في خجل بسقوط نظريتي الخاصة في مسألة الشيطان.

تعهدتُ لها أن أتوقف بأبحاثي الناجحة مُجملًا عند ذلك الحد. وأن أعتزل العلم مُتفرغًا لحياتنا. ولم يكن القرار -في الواقع- يضرب نفسي بأيّ ألم. ولم أجابه أيّة صعوبة في اتخاذه أمام عينيها.

تواردت كل تلك الأحداث القريبة جدًا أمام ذاكرتي، بينما أرى

عمال المؤسسة يشرعون في تفكيك معملي الخاص، تحت قيظ شمس الظهيرة.

جالسًا في الشرفة التفتُ حولي، فرأيتُ بسمات (إبراهيم) و(علياء) الصافية، عينيّ (إسراء) الكسيرة من كل ما حدث، ولمستُ ضغطاتها على يديّ مُطمئنةً مُدعمة.

عدتُ لأنظر إلى قطع المعمل المُفككة، وعدستي الضخمة التي يحملونها بهمة وشقاء إلى العربة الخاصة. فراودتني خيالتي وتقلباتي المزاجية العنيفة، وأفكاري عن نفسي مُجددًا ومُجددًا، كما كانت تفعل طوال حياتي. حملت الأولى أحلامي التي أوقفتُها بالأمر المُباشر. وحملت الثانية خليطًا عجيبًا من الرضا والسخط، والشغف لشيء لا أعلمه، وحنينًا لذكرى غامضة. بينما دارت الثالثة حول كنه الشيء الذي عزله الجهاز عن جسدي، مصير تتمة بحثي، وعلاقة نظرية الأبعاد بالشياطين. فهرعتُ مُحاولًا عرقلة خواطري المُتلاطمة بكل ما بداخلي من القوة .

زحفت يدي تتناول الكتاب المُزخرف المُرتاح جواري وتفتحه. ثُم شرعتُ -همسًا- في تلاوة قرآني.

الدجال

في عواء الليل الموحش، حملتُ أحطابي المبتورة من أشجار العالم الصابرة. وإلى ناري المُحتضرة ألقيتُها، بينما السعال يخنق صدري؛ فيبعث في الهواء المُثلج دفقاتٍ من الأبخرة الكثيفة كالدخان.

وحيدًا واهنًا عدتُ أجلس أمام ناري؛ قطعة الحرارة الوحيدة وسط البرد المُحيط. وجدتُ تعب اليوم يُحاصرني مثلما تفعل سُرادق النار في الخشب، وازدادت جذوة تعبي اشتعالًا بوقود حزني ويأسي.

أمام كل تلك الدسائس بفعل الطبيعة والجسد؛ انطلق ضحكي المحموم المجنون يحرق حلقي، يزيد من صدري اختناقًا، ويشق الليل، ليضيف إلى رُعب الأخير طبقة جديدة من الرعب، اندفعت تحت جلدي مع وهج النار.

شعرتُ برغبة عارمة في الحديث. أعليّ أن أوقظ امرأتي؟ لديها ما يكفيها من تعب يوم طويل في البحث عن غذاء يصلح لبطوننا الخاوية أبدًا. أم أوقظ ولدي (ياسين)؟ وما الفائدة! ماذا سأقول لفلذة كبدي المُعاقة ككثيرٍ من سكان العالم الجديد؟! هل أوقظه لاستمع إلى همهماته الهتماء الغامضة، والتي لا تُسمن ولا تُغني من فهم؟!

تطلعتُ حولي في الأرض الخراب المُجلدة بكساء الشتاء الأبيض

الرقيق، باحثًا عن رفيق ساهد يؤنس وحدتي القاسية المُلحة. عن كلب صارخ.. أو قطة ناعسة.. أو عنكبوت هارب.. أو حتى شيطان مارق في الظلال! فلم أجد..

سعلتُ في محاولة للاستئناس، وأنا أمد يديّ إلى النار لأدفع فيهما مزيدًا من الدفء؛ فسرت الحرارة في كفيّ وأناملي، شديدة كنمل ساخن، اندفع عبر طرفيّ إلى جسدي حتى قمة رأسي، فأشعل الفكرة المجنونة فيها.

وهمستُ بصوتٍ مشروخ: لا يوجد لديّ سواك يا ناري.. دعيني أستوقدكِ بحطب الكلام إذن.. ليس لديّ أدنى شك في ذكائكِ وقدراتكِ على استيعاب ما نضحت به نفسي.. فأنتِ صديقتي وونيس لياليّ...

ضحكتُ من جديد لغرابة الفكرة، إلّا أنني واصلتُ: من أين تُريديني أن أبدأ؟

انتظرتُ إجابتها، فطقطق الحطب تحت ثقلها. وخيّل إلي أنها قالت: منذ البداية.

فابسم وجهي المُتيبس من مزيج البرد والحرّ. وقلتُ هازًّا رأسي: حسنًا.. ولِمَ لا!

ازدادت الطقطقة الهامسة، كأنما تؤيدني وتحثني على البدء. فابتسمتُ مُجددًا، ضممتُ ذراعيّ إلى صدري، ابتلعتُ ريقي عبر حلقي الجاف، وأخذتُ نفسًا مُعبقًا بروح ناري الشغوفة المُنتظرة، ثُم بدأت.

* * *

لا أعلم أكانت مُعايشتي لعالم ما قبل الحرب الكونية من حسن حظي

أم من سوءه؟! لكن الأرجح بالنسبة إليّ، أن الجوابين على قدرٍ كبيرٍ من الصواب.

فلنبدأ بحسن الحظ، إذ عاشت طفولتي في عالم ميسور، تبدو تقنياته أقرب إلى السحر. الدنيا كلها في قبضة اليد، من سيارات فائقة السرعة، وطائرات نفاثة، إلى عوالم افتراضية، وقدرات خارقة لشبكات الاتصالات. عندما تمرض لديهم ما يكفي من العلم لشفاء كثيرٍ من وعكاتك. وعندما تحزن لديهم الكثير من وسائل التسرية عن كربك. قطاعات اللذة تحت أمرك في أيّ وقتٍ، وفي كل مكانٍ تقريبًا، ما دمت قادرًا على الدفع بالطبع.

كان ذلك ما قدرتُ على تذكره من ذاك العالم القديم. إذ تبدو صورته في ذاكرتي مُبهرجة رائعة؛ لكنها زائغة.. لستُ قادرًا على تذكر تفاصيلها، حتى أتمكن من تسرية سنوات همي القائمة بها على الأقل.

كُنتُ في العاشرة من العُمر تقريبًا، عندما هوى الحظ السيء على الأرض كقبضة ساحقة. لا أذكر تحديدًا الأسباب، لكن الأكيد أنني سأذكر النتائج ما حييت، فهي ماثلة أمامي حتى هذه اللحظة!

كان الأمر أشبه بعراكنا ونحن أطفال، استفزاز من الكتلة الشرقية للكتلة الغربية، ثُم استعراض قوة للكتلة الغربية، ثُم استنفار للكتلة الشرقية، لم يلبث أن انقلب إلى تهور قيل أنه محسوب، ثُم غضب للكتلة الغربية ثُم رد.

واشتعل فتيل الحرب الشعواء؛ لتحصد ضحاياها بشراسة. ولم تلبث الكتلتان أن ضجرتا من المعارك الطويلة المُنهكة، فتبنتا فلسفة الأرض

المحروقة، وبدلًا من أن تجنحا إلى هدنة -ولو مؤقتة- أو حتى تستمران في شن الحرب ضد بعضها، شن الجميع حربًا ضد الجميع، وكانت الأسلحة النووية، والعضوية خير وسيلة.

في الحقيقة أنني -إذ أذكر ذلك- لا أعلم حتى الآن كيف مررتُ بكل ذلك، ولم أمت، أو أصاب أو أُجن حتى! لقد شهدتُ بأمّ عينيّ أبي يُصرع تحت أمطار الليزر المُتراشقة بينما نهرع إلى المخابئ النووية. وشهدتُ أمي وهي تحترق من سرطان اشتعل في دمائها ليهلكها سريعًا.

كانت ذاكرتي الحقيقية تبدأ مع الويلات التي هطلت علينا بقسوة الدنيا والآخرة. كيف اتسع كياني الضعيف لكل تلك المآسي المُتلاحقة؟ كيف اتسع للصراخ والعويل المُختنق المُدوي في الملاجئ المُكدسة، والذي لا يفارق كوابيسي ويقظتي؟! كيف استوعبت عيناي وأعصابي التشوهات الرهيبة التي أنجبتها بيئة أرضنا الموبوءة؟ !

في غضون عشر سنوات، صرتُ من الشهود الأحياء القلائل على الدرك السحيق الذي سقطنا فيه جميعًا، حتى خيل إليّ أننا كُنا كل يوم نتراجع عشرات السنوات إلى الخلف.

الأغرب أن ذلك لم يكن -على ما يبدو- يكفي؛ فقد واصل القدر كتابة فصولًا جديدة في كتاب المآسي...

بعد عام من وضع الحرب لأوزارها بفوز الجميع، وخسارتهم الساحقة الماحقة في آنٍ واحدٍ، بدأت الأرض -التي صارت تُنجب محاصيل مُشوهة- تعقم، وأمسكت السماء عن معظم عُصارتها؛ فجفّت التربة وماتت المزروعات، ونفق كثيرٌ من الحيوانات التي وُلد أغلبها مُعاقًا.

ازدادت حرارة الصيف.. باتت أيامنا داخل أفران جهنم الدنيوية، واشتدت قضمات الشتاء لتحصد رئاتنا ثُم أرواحنا حصدًا.

إثر ذلك، ازداد الرجال أنينًا بضعف حيلتهم. وارتفعت النساء صراخًا بوهن رجالهم ونفوق أبنائهم، واشتد الأطفال الكسحاء بُكاءً أمام آلام الآباء والأمهات، على القحت، والجوع الذي نهش البطون، والأمراض التي وطنت الأجساد فأنهكتها. أما الشيوخ فقد تحملوا كل ذلك في صمت يحوي ألمًا أبلغ من أيّ صراخ أو بكاء .

مع كل تلك المصائب، انقسم الناس فيما بينهم. منهم من فقد إيمانه، وصار كالشبح الهائج المُتوحش، يقتل، يغتصب، يسفك، وينهب اللقيمات التي يتحصل عليها إخوانه. عاش يومه كما تُملي عليه شهواته وغرائزه، هانئًا راضيًا. ومنهم من استمسك بإيمانه أكثر، وصارت الصلوات والأذكار لا تُفارق شفاهه الشاحبة المُتشققة، وبات رأسه مُنكفئًا خاشعًا لاستعاذاتٍ لا تنتهي من شياطين الإنس والجن؛ أملًا في رحمة الله الواسعة.

ومنهم من كان بين بين، وكُنتُ أنا وامرأتي ضمن هذا الفريق، تتنزل علينا الرحمة والسكينة؛ فنُصلي ونتعبد، وعندما تذهب أحيانًا لا نلبث أن نلعن الزمن وكل ما أصابنا. لكننا لم نبلغ حد التقتيل على الأقل.

وبين أيامنا الأبدية، كانت الأصوات الورعة ترتفع بمزيج من الغصة والحسرة والغضب:

(إنه عقاب السماء!.. عقاب الله عليكم أيها البشر الحمقى!.. كان لابد أن يحدث هذا بعدما بلغ منكم الغرور مبلغ الدين.. وصرتم تعتقدون

أنكم آلة مُترهة على الأرض المسكينة.. حارب بعضكم بعضًا.. وصرعتُم أنفسكم.. لا تلوموا القدر عمّا يحدث.. ولا تسألوا رحمةً لم تكونوا مستحقيها.. ولم يمنحها يومًا بعضكم لبعض!)

كُنتُ متفقًا مع ذلك المزيج من اللعن والوعظ، قلبًا وقالبًا .

وقال آخرون في رعبٍ: إنها علامات الساعة.. القيامة صارت على بعد خطوات قليلة منّا!

بينما لم أكن مُتفقًا مع ذلك المنطق إجمالًا، ولكنني ابتلعتُ لساني المُر آثِرًا الصمتُ، مُستسلمًا لسياط تقريع مجاذيبنا وشيوخنا الهاذين.

لكن لم يلبث أن طرق الشك باب قلبي الرافض، مع حدوث النبوءة، وظهور الدجال.

* * *

ساد الصمتُ ثقيلًا بيني وبين ناري المُتأججة شوقًا، في انتظار باقي حكايتي.

مسحتُ آثار عبرات كانت قد وجدت طريقها إلى خديّ. وتلفتُ حولي في رُعب إثر عبارتي الأخيرة. خشية أن يدهمني الدجال في الليل الساكن بإحدى ألاعيبه ومُفاجآته التي لا تنتهي.

هكذا ظللتُ بُرهة ثقيلة من الزمن، استمع دقات قلبي، بينما انتظره ليُرعبني، ويشوي كياني بعذاباته. صارخًا بصوته المبحوح الممزوج بالعواء: جنيّ أم ناري؟!

ببدن مُقشعر، آثرتُ أن أبعد الخاطرة سريعًا؛ فهو يستمتع جدًا بتلك

الخواطر التي تدفعه للمجيء لصاحبها مُسرعًا، مُستجيبًا لصراخها ونداءها المُستغيث منه إليه!

عدتُ أنظر في النار، كأنما أبعد نظري عن ظلام الليل المُثير لألف توجس. وخطر لي مُجددًا أن أوقظ امرأتي، إلّا أنني عدلتُ عن ذلك مرة أخرى. وحاولتُ استحضارها في خيالي لتكون ونسًا مع النار أمام رعبي القائم.

لاح لي شبح وجهها في النار، مُتألقًا بوهنه الأبديّ، فدفع هلعي بعيدًا أمام دفء ابتسامتها النادرة القليلة.

همستُ لها في النار: (سعاد).. أهلًا بكِ يا زوجتي ورفيقة آلامي الحبيبة.. لم لا تؤنسي ليلتي بالسمر؟!.. فلتحكِ عن أيّة ذكرى لنا معًا.. أرجوكِ مُديني بأيّة دفقة دفء أمام برودتي المُتربصة!

فخُيل إليّ أنها تُجيب، وعلى شفتيها سخرية: ذكرياتنا معًا؟! ما الأيام السعيدة التي عشناها يا (أحمد) أصلًا؟!.. مآتمنا مُستمرة، وسعادتنا ليست إلّا مُجرد بسمات عابرة فارغة.. حتى فرحتنا الوحيدة (ياسين) هو شبه حي.. لا يعي ولا يعقل شيئًا مثله مثل كثيرين من أقرانه.

سالت دموعي مُجددًا، في شجنٍ حزينٍ يسري بأعماقي الباردة، وأضفتُ مؤمنًا على كلامها: ما معنى الفرح؟!.. الفرح لدي اقترن بطفولتي فقط.. رُغم أنني لا أذكر معظمها؛ لكنها لا شك كانت سعيدة في عالم حقيقي.. وليس غابة مُقحلة؛ حيواناتها بشر، فقدوا كثيرًا من آدميتهم!

فأمّنت على كلماتي بضعف، ودموعها تنسال في صمتٍ.

قلتُ مُحاولًا التسرية عنها: فرحتنا ليست في هذه الدنيا يا (سعاد).. فرحتنا لن تكون هنا أبدًا.. رُبما يُخبئ لنا القدر كل الخير في دنيا أخرى.. وربما تكون معاناتنا المُستمرة هي ثمن تلك الدنيا.

ردت قائلة بصوتٍ وملامح مختنقة: رُبما.. لكن لماذا ندفع نحن الثمن؟! لماذا ندفع ثمن حماقات أجدادنا؟!.. لماذا يحق علينا عذاب كانوا هم بادئيه بينما كُنا صغارًا لا نفقه شيئًا؟!

عجزتُ أمام خواطرها المختنقة في النار عن الرد، فلم أجد سوى أن أهمس: إنه قدرنا.

واعتصرتُ عينيّ مُغمضًا لحظات، مُحاولًا تسكين نيران آلامي التي اشتدت مع حديثها، وعندما فتحتهما كان وجهها قد ذاب في رقصات اللهب.

دفعتُ عقلي ولساني دفعًا لتغيير الموضوع، هامسًا من جديد: يا ناري.. علمتُ عنك دائمًا أنك الوحيدة القادرة على قتل كل الشرور.

وأضفتُ مُقربًا كفيّ منها، كأنما استنطقها: لذا سأتم عليكِ قصتي.. قصتنا.. ربما تمكنتِ من استجلاب الشرور فيها.. وإحراقه!

* * *

أحد عيوبي الأزليّة كان قدرتي المُدهشة على تذكر كل الأحداث السيئة، ونسيان لحظات الفرح، وقد كان لذلك على كل حال مُبرراته التي تُعد داحضة لحُجتي في ذات الوقت؛ هي أن حياتي عبارة عن مأساة كبرى، يتخللها ومضات من فرح منقوص سريع النسيان.

وقد كان يوم مجيء الدجال إلى عالمنا، يستحق مكانًا مُميزًا في ذاكرتي

بحق، كما لابد أن استحقها في ذاكرة كل أحياء الأرض.

كُنا في لهيب الصيف، نبحث كعادتنا عن أقرب شيء إلى الطعام لنضعه في أفواهنا. في مُحاولة يائسة لسد الرمق. منّا من يأتي على بقايا العشب، ومنّا من يأتي على أوراق الشجر، وقد يكون سعيد الحظ إن وجد ثمرة نيئة أو حتى فاسدة. وكانت تربية الدواجن والماشية مستمرة بصعوبة رغم حالات التشوه، والعقم التي سادت الأجيال الجديدة. كانت مُكلفة وتحتاج جهود مضنية، كما أنها تُنتج في النهاية سُلالات مُشوهة ذات لحم قليل. ومنّا من كان يجد ضالته في القطط والكلاب والفئران، أو حتى الحشرات. كما كنا أحيانًا نتشارك في صيد بعض الطيور والأسماك الناجية.

أما الشقيّ منّا فكان يوفر على نفسه كل ذلك، ويتخفى في رداء الليل، لينقض على أحد الضعفاء ليلًا، فيختطفه، ويحوّله إلى وجبة تكفي إلى إخراس معدته ليومين.

كان ثلاثتنا –أنا و(سعاد) و(ياسين)– نبحث كعادتنا في الأشجار، مع مجموعة من جيران منطقتنا. عندما أتت الصيحة.

رغم ذاكرتي الحديدية تجاه المآسي، إلّا أنني أجد صعوبة بالغة في وصف تلك الصيحة، لكن ما لا يُمكن أن أنساه هو تأثيرها فينا، حتى أنني أشعر الآن بتلك الرعشة التي انتابني عندما سمعتها أول مرة.

كانت الصيحة مزيجًا من الصراخ والعواء والزئير. تحمل حزن كل الأطفال، وغضب كل الذئاب، وشراسة كل الأسود، مُضافًا إليها شحن نفير السفن.

في وهنٍ مُرتعبٍ، سقط كثير منّا أرضًا، مُحاولًا إغلاق أذنيه بكفيّه، ومُغمضًا عينيه عن ذلك الكابوس الذي عاش كل منّا فيه خلال دقائق الصيحة، وكان منهم امرأتي. أما أنا فقد تيبستُ في مكاني، وأحسستُ بشعري كله ينتصب كالمصعوق.

لم يلبث أن أعقب ذلك ظهوره. كان عملاقًا هائلًا يكاد يبلغ السماء طولًا، يشبه الإنسان إلّا أنه كان أعورًا، وكان لجسمه الضخم لون بني غريب، يُشعر الناظر كأنه مكسوّ بفراءٍ غير ملحوظ.

العجيب أن مرآه بلغ الجميع بذات الوقت، كما أنه لا يمكنك الهرب من وجهه البغيض، حتى لو كنت واقفًا خلفه!

بذات النسيج الصوتيّ للصيحة، قال: مرحبًا بالبشر الفانين.. مرحبًا !

أضاف بعمق: أنتم الآن على مشارف أسوأ كوابيسكم على الإطلاق.. مهمتي هي أن أجعل حياتكم جحيمًا مُتصلًا.. فقط يمكن من يشاء منكم أن ينجو بطريقة واحدة.. أن ينضم إلى جنتي.. وجنتي ليست إلّا جحيمًا أقل وطأة مما ستحيونه!

وأكمل بينما الرعب ينفض أجسادنا نفضًا: جنتي أم ناري؟!.. ذلك هو خياركم.. فلتستعدوا له.. سأزور جميعكم.. لن يغادرني أحدًا ولا ملجأ مني ولا مخبأ.

أطلق ضحكة جهنميّة، قبل أن يضيف: جنتي هي عبادتي.. أنا ربكم الأعلى.. فهل أنتم عابدون؟! هل أنتم راكعون؟!

ثُم أطلق ضحكة أخرى، قائلًا: ناري هي الكفر بي والتمسك بربكم.. فهل أنتم كافرون؟! هل أنتم متولون؟!

وأختتم رُعبه قائلًا: جنتي أم ناري؟!.. سوف تعلمون.

واختفى فجأة كما جاء، تاركًا أجسادنا الغارقة في عرقها تتجمد في مشاعرها الثلجية المُخدرة.

ومنذئذ، بدأت حملات الدجال على الجميع تتوالى. بطريقته الجهنمية، يطرق النفوس طرقًا، ويتلاعب بها كما يحلو له.. سمعنا كثيرًا عن عبثه بضحيته، وسخريته بها، فيلوي جسده تعذيبًا، وتكاد روحه تُزهق إلى أن يتأكد من ولاءه التام له، ثُم يتركه يرفل بمكافئة مُجزية، قد تكون ثمرة شهية أو حتى حفنة من ماء عجيب كالشهد، على وعد أن يعود إليه كي يتأكد من إخلاصه وامتثاله لكل أوامره. أما الكافر به فتكون ويلاته أكبر وأعنف، إذ يُدخله في متاهات مُستمرة من العذاب، كُلما ظن أنه عبر إحداها يُصدم بغيرها الأشنع والأعنف، ولا تنل روحه رحمةَ الإزهاق أبدًا!

ورغم كل الأساطير التي نُسجت عن جبروته، إلّا أن أحدًا من ضحاياه لم يصف بالتحديد ما جرى له من العذاب، سوى أنه عذاب أعظم من الذوبان حيًّا في أشد براكين الأرض قسوة .

انتشرت سطوته في الأرض، وطرق مع أعوانه المرعبين الكثير من النفوس. إلّا أن كثيرًا من النفوس لم يطرقها بعد، كنفسي وأنفس أسرتي الصغيرة على سبيل المثال. مرت الأيام علينا بطيئة كالأبد، مُنتظرين طرقاته علينا في أيّة لحظة، حتى سهدت عينايّ وذهب عن كياني معنى النوم. هرع من استطاع أن يفرّ منه إلى مكة والمدينة، وعلى الرُغم من ذلك، سرت الإشاعات بين الناس أن البلدين لم يكونا ملجأً عازلًا

للمختبئين فيها. كما انتحر كثيرون رُعبًا منه ومن انتظاره، مُرجئين عذابهم إلى يوم الآخرة الثقيل.

زادت الحياة بؤسًا فوق بؤس، وضاع إيمان بعض من احتفظوا بإيمانهم. لم يضع على يد تعذيب الدجال، إنما أضاعه بلوغ هوّة اليأس، والقنوط التام.. وظل البعض في منتصف المسافة، مثلي أنا وامرأتي. كُنا دومًا نُفكر في اليوم الذي يأتينا فيه الدجال. وماذا عسانا أن نفعل؟! فلا نلبث أن ندعو الله آملين أن نكون من أهل الصمود.. وأن يغفر لنا إذا سقطنا أمام الفتنة.

بينما اشتد إيمان آخرين، وازدادت صلواتهم عمقًا وخشوعًا، رغم علمهم بمصير من هو مثلهم على يد ذلك الشيطان الرجيم.

وقال أصحاب الفئة الأخيرة بأمل يُدهشني شخصيًّا: اصبروا.. اصبروا.. ألا إن نصر الله قريب.. قريبًا سيهبط مُخلصنا.. سيهبط مسيحنا بإذن الله ليخلصنا من شرور ذاك الرجل وفتنته.. لا تقنطوا من رحمة الله.

لكنني أعترف أن قنوطي اللحظيّ كان لا يلبث أن يتحول إلى مزيد من الصبر، يُضاف إلى جبال صبري الشائخ.

إلى أن جاء ذلك اليوم الذي حوّل جبال صبري الترابية إلى تلال ذهبية من الأمل.

* * *

تلألأ لهيب ناري الذهبيّ، ليلتمع عليها أملي السابق، فمضيتُ أهتف بحرارة: ذات يوم انتشر في أسماعنا عن رجل.. لم يكن مثل كل الرجال.. قالوا أنه استطاع الوقوف أمام الدجال، بل قالوا أن ألاعيب الدجال لم

تنطل عليه .

ابتلعت ريقي عبر حلقي المُتخشب مُضيفًا: الواقع أننا لم نرَ الرجل قط.. يقولون أنه كان يسكن أقصى الشرق.. لا نعرف بالتحديد أين.. لكن الآمال ارتفعت بشدة مع أخباره، قالوا أنه استطاع حشد مجموعة صغيرة من مؤيديه.. وأنهم بدءوا يخطبون في الناس.. يخبرونهم ألّا يخافوا.. فالدجال ليس إلّا مُجرد ساحر يخدع الناس بألاعيبه، وقال ذلك الرجل الذي لم نعرف اسمه بالضبط أن خوفهم فقط هو الذي يغذي الدجال ويمنحه السيطرة عليهم.. فإذا تمكنوا من إسقاط خوفهم لن يتمكن منهم، وسيسقط الدجال في الحال.

التهب حلقي بالسعال من جديد، وانتفض جسدي انتفاضًا، بينما أتطلع إلى الظلام جاثم حولي، ثُم إلى السماء ذات المحاق والبروج، وعندما انتهى سعالي، أكملتُ ببسمة على محياي وبصري لا يزال شاردًا حولي: قيل أن اسمه (يحيى).. وزعم بعضهم أنه المسيح.. لكننا لم نعلم قط من هو تحديدًا.. حتى شكله قد تناقلته الألسن بصورة مختلفة.

وعادت الخاطرة المُقبلة تُنغص روحي ، فرجعتُ ببصري إلى النار قائلًا: ورُغم الأمل الذي انتعش في الصدور؛ إلّا أن الناس –وأنا منهم بالطبع– لم نتمكن من ترجمة خطابه إلى أفعال.. لم نستطع نفض خوفنا من الدجال بعيدًا.. كان كلامه يسيرًا، لكن الفعل بالغ الصعوبة.. بل مستحيلًا خاصة مع الجوع والمرض المُهيمنان على أجسادنا.. حاول الدجال غير مرة أن يقهره إلّا أنه لم يستطع.. وقيل أن المعركة التي دارت بينهما لم يستطع أيهما دحر الآخر فيها.

هبت الرياح الجليدية، فتراقصت على إثرها النار في توتر، بينما ألوح بيديّ: وذات يوم أقبل الرجل مع جماعته إلى جموع الناس.. خاطبًا فيهم أنه توصل إلى وكر الدجال.. وأنه قد قرر الذهاب إليه في عقر داره، ودعاهم إلى إتباعه ومُحاصرة الشيطان لقتله، وهنا ماج الجمع رغم الأمل الضعيف داخلهم؛ إذ بدءوا يفقدون الثقة به خاصة بعدما تأكدوا مع الوقت أنه ليس المسيح.. وصمه كثيرون بالجنون، ووصمه البعض بالغرور.. حتى أصحابه وأعوانه قد انفضوا من حوله بعدما تملكهم الرُعب مُجددًا.. حاول إقناعهم قائلًا إن أكبر أعدائهم الآن هو خوفهم وجهلهم؛ فلم يكن منهم إلّا أن ثاروا وتهجم بعضهم عليه.. حتى أعوانه التي ملأت نفوس بعضهم الغيرة قد أنقضوا عليه.. وكان تجرؤ البعض فتيلًا لإشعال هجوم مُريدي الدجال على الرجل.

ارتبكت نفسي مع الذكرى، فأضفتُ والرؤية تذوب أمام دموعي المُترقرقة: قتلوه.. ولم يكتفِ الدجال بذلك؛ بل أمر مُعاونيه أن يُمثلوا بجثة الرجل فقطعوه إربًا ليكون عبرة لغيره.

ابتلعتُ ملح دموعي، بينما فمي اللزج يُخرج صوتي المُرتعش: كان لرحيل الرجل على ذلك النحو أثرًا كبيرًا في النفوس.. إذ زاد الهمّ في أناس مثلي.. وأما المؤمنون فزاد إيمانهم، وأما الأشقياء فقد نشطت شياطين الشماتة فيهم.

صمتُ من جديد، ناظرًا إلى الأفق الذي بدأ يتلوّن بضياء شمس قادمة، باعثًا في نفسي أملًا كاذبًا: حدث ذلك منذ نحو أسبوع.. بعدها أتى انتقام الدجال كبيرًا.. إذ أطلق صيحته الرهيبة وخاطبنا كلنا مُهددًا ومُتوعدًا بمن يجرؤ على تحديه مُجددًا.. تلى ذلك سلسلة رهيبة من

التعذيب للمؤمنين.. ونشط أعوانه الذين يظهرون فجأة من حيثُ لا نحتسب.

اكتنفني الإرهاق، ضاعفته الذكرى المهمومة. أخذتُ أسرح ساهمًا في النار التي بدأت شقوتها تأفل. فذويت معها رغبتي بالمضي في الحديث. ولم يكن مني إلّا أن تثاءبت بعُنف وهممتُ أقوم مُرتعدًا.

في كنف أحد أنظف الجدران المهدومة، تيممتُ وصليتُ فجرًا كدتُ أضيعه. فغسلتني الصلاة الهامسة من توتري، وأسكنت منابع خوفي.

شاردًا، عدتُ اتجه إلى ناري التي وهنت الآن، قبل أن أهتف لها بحلق مبحوح حزين: وداعًا أيتها الصديقة العزيزة.. سعدتُ بصحبتك الليلة.

ورميتها بالرمال، فخمدت مُطلقةً دخانها الأبيض حاملًا ذكرياتي فوق جثث الحطب المُتفحمة. بدأتُ استعد لرحلة المعاناة اليومية في تدبير قوتنا.. لو كان ما نبحث عنه ونأكله قوتًا حقيقيًّا من الأساس!

انتشر ضوء الشمس البعيد في السماء، فصبغها بالأزرق الذي انعكس على الموجودات كلها، وبدأتُ أشعر بالحركة تدب في المآوي المُنتشرة حولنا كأنها قبور تستعد للفظ موتاها.

شرعتُ أتحرك إلى خيمتنا؛ لأوقظ (سعاد) من أجل أن نبدأ رحلتنا اليومية، إلّا أن الصياح القادم من الأفق قد جمّد جسدي، وشحذ حواسي كلها.

لم يلبث جسدي أن استرد حركته، فهرعتُ إلى مصدر الصوت. كان أحد ذائعي الأخبار في منطقتنا قادمًا، قائلًا بصوت غير مميز في البداية، لم يلبث أن اقترب واتضح وتعالى: سقط الدجال!.. سقط الدجال!

خفق قلبي بقوّة إثر استيضاح كلماته، بينما أرى الناس تخرج خلفه من المآوي مُجتذبين، فبدوا مثل الذباب المُنجذب لميتة.

وعندما صار مُخبرنا الشاب ضئيل الجسد أمامي، سألتُه بذات صوتي المبحوح: سقط؟! كيف؟!

فأجاب بصوتٍ لاهث، وهو يتوقف أمامي: منذ رسالته الأخيرة، وعقابه الأخير وهو مُختفي.. لم تصلنا أخبارًا عن لعنات جديدة قد صبها على الناس.. والبارحة قبل منتصف الليل أتى شرقًا رجل قوي البنيان مُلثم الوجه.. قال للناس أن الدجال قد قُتل، ثُم أفرغ جوالًا كان يحمله على ظهره فإذا بكهل ضئيل الجسد لكنه يحمل رأسًا ضخمًا.

ألتفتُ فوجدتُ جميع السكان قد أتوا مُحلقين حول الرجل، ولمحتُ (سعاد) في الخلف تقف مُنصتةً بوجهها الشاحب الهزيل المُنتفخ بنوم سابق، والمُزرق بضوء الفجر. ثُم قال الرجل بعدما استرد أنفاسه المسلوبة، وابتلع ريقه: قال الملثم أنما ذلك الرجل ضئيل الجسد هو من كان يزعم أنه المسيح الدجال.. ولم يكن في الحقيقة إلّا رجلًا عاديًّا لكنه كان يملك قدرات ذهنية فائقة خوارقية.. وكان يستعمل قدراته مع السحر في سلب العقول والسيطرة عليها.. فقد كان رجلًا مجنونًا.. جلّ همه أن ينتقم من الناس ويسيطر عليهم!

بدا وقع المُفاجأة شديدًا عليّ وعلى الجميع. فساد الصمت الواجم الداهش، بينما الوجوه الباكية تنطق بفرحة حذرة، والجو مُختلط بالهمهمات المُتسائلة.

سأله أحدهم بصوت لم يفق من صدمته بعد: ومن هو ذلك الملثم؟

التفت الرجل إليه، قائلًا: لم يكشف عن نفسه.. لكنه قال أنه رسول من قاتل الدجال.. وقال أننا سنفهم كل شيء مع بروز الشمس في الأفق.

فهتفتُ، وقلبي يتحرر بينما أنظر للسماء: أي بعد قليل القليل.

وقال آخر: من أين لك بتلك الأخبار؟ أرأيتَ ذلك الرجل بنفسك؟

فأجب المُخبر، بينما ينظر إلى السماء مُتشوقًا:

لا.. لم أره.. ولكن الأخبار تصلني من الرفاق في المناطق المجاورة، كما تعلم إلى أن ينتشر الخبر في كل الأقطار.. فكل مناطق الأرض متصلة ببعضها عبر أطلال المدن الضخمة المُدمرة الآن، والتي شيدها أجدادنا يومًا.

دفعت عبارته الأخيرة الذكريات المؤلمة في نفسي مُجددًا، فاضطربت بمهماتٍ أشبه بالهمهمات التي اشتدت انتشارًا وحدّة بين الجمع. وشخصت معها الأبصار إلى الأفق حيث ترتقي الشمس، بينما تزدرد الحلوق مائها الشحيح مُترقبةً.

فجأة اهتزّت الأرض، والأناس بدبيبٍ عنيف، سحب الدماء من الأجسام سحبًا، ودفع الفزع في القلوب دفعًا، بينما ظلت الأبصار شاخصة للسماء وفيما حولها؛ فارتطمت فجأةً بعملاق هائل، غريب الشكل عن العملاق السابق، شديد البأس، أعور، صاحت لصياحه الأرواح في رعب لم يسبق لها أن خبرته قبلًا.

هوت القلوب بين الأقدام، كما هوت بعض الأجساد الشائبة أرضًا.

وبينما نتجمد فوق الأرض المُهتزة أمام العملاق في رعب ممزوج بالصدمة

والعجز، سمعنا أحدنا يهمس بنبرات مرعوشة غير مُصدقة: الـــ.. الـــدجال الحقيقيّ؟!

-١-

بزغت الشمس، وتدفق رحيقها دافئًا طازجًا إلى وعاء الوجود؛ فأنار نسيج السماء بألوان النهار الحامل للطيور المبكرة، كما انعكس على الأرض الإسفلتية والزروع المحيطة مُخرجًا عبقهما المختلط المُنعش.

تشربت عظام (مدحت) مزيج الطبيعة بتؤدة، بينما يرقب ساعته التي تقترب من صفر انتظاره أمام المزرعة.

كان كعادته قد أبكر في الاستيقاظ -إجبارًا وليس اختيارًا- بعدما التهم الأرق المزمن كل ما بخزائن نومه. وقبل أن تشير عقارب الساعة إلى تمام الخامسة كان قد بلغ أعلى معدلات نشاطه، كأنما قد أخذ جسده كفايته التامة من النوم. فقد كان جسده يريد العمل أكثر من ذاته الملولة .

في الخامسة والربع، كان قد استقل المترو المندفع كدودة صاروخية تحت أرض المدينة المتيقظة لتوها. وعلى عكس جسده النشط، كان عقله مثل جسده يعاني الخواء والخمول. كل ما استجد على ساحته النفسية كان بعض التوتر المصاحب لكل من هو مقبل على تجربة جديدة.

على كل حال، أي وظيفة ستكون أفضل مما مررتُ به!

كانت تلك الخاطرة تحاصره، وتُلح عليه مثل أرقه المزمن؛ فيتعثر عقله كلما خطا عليها. منذ الاستيقاظ، وفي المترو، وعلى مقعد الناقل العام المُنطلق خارج المدينة حيث موقفه، وفي انتظاره الأبديّ أمام المزرعة المواجهة لموقف الناقل.

حفر الجوع نفسه في بطنه، لكن توتر بداياته أفقده شهيته الضعيفة بالأساس. فنظر متململًا إلى موت البوابة السوداء العملاقة، والتي استجابت لنظراته وانفتحت بينما يطرق شروده وقع الأقدام من خلفه.

حيا العمال وموظفين النوبتجية قبالته، و لم يلبث أن انخرط في مؤخرة صفوفهم، بينما تُرحب أذناه بهمهماتهم الكسولة.

وقبل أن يدلف عبر البوابة، شردت عيناه لأعلى؛ قارئتين ما على اللافتة الفضية العملاقة، الواقعة أسفل السماء الزرقاء الصافية، بالأسود اللامع الأنيق: (مزرعة الأمل للتدجين البشري)...

-٢-

ترك الجمع المُبكر يوزع نفسه بين عربات النقل المنتظرة. وعندما انقشعت الغمامة البشرية، وجد نفسه أمام امتداد للطريق الإسفلتي العام الذي يتفرع كالعروق إلى سبعة طرق فرعية. على امتدادها تربض خيم معدنية عملاقة أشبه بالثكنات. بينما ينتظر على يمينه بجوار المدخل مباشرةً المبنى الإداري، كما يقع جواره مركز المراقبة الإلكترونيّ.

لم يكن هناك جديدًا تخبره إياه اللافتة الأنيقة أمامه، إلّا محل توظيفه في

هذا المكان، وهو جراج الشاحنات المجهزة.

شعر بنوع من الارتباك أمام الدنيا الصامتة أمامه، وأطياف العمال البعيدة؛ فأشار له رجل أمن البوابة قائلًا: يبدو أنك السائق الجديد، مرحبًا بك.

فاقترب من الرجل الثلاثيني، قائلًا بصوت خشن راكد، هو يحرك عضلاته وجنته للابتسام: أهلًا.. بالفعل أنا هو.. من أين أبدأ؟

فأشار له الرجل سريعًا مُردفًا: مُر على الإدارة أولًا لتوقيع استلام العمل.

فشكره بالتفاتة سريعة قبل أن يحث الخُطى إلى البناء ذي الطابقين. دلفه إلى السكرتارية المكيفة بسلام، حيث كرر تعريف نفسه إلى السيدة الممتلئة الجاثمة خلف المكتب الصغير: مدحت الشرقاوي.

ثم مجددًا عرف نفسه للاستمارة:

المؤهل الدراسيّ: شهادة الهندسة الميكانيكية بالجامعة الهندسية الشاملة.

المؤهل الوظيفي: رخصة قيادة شاحنات.

لم يسبق لي العمل من قبل...

الحالة الاجتماعية: أعزب.

الوالدة متوفاة

أشارت لأسفل الورقة بقلمها، وقالت بعينين وقحتين: وقع هُنا.

فعل كما أرادت، فردت فورًا ببرود وظيفي: مرحبًا بك معنا.. عليك الآن بالتوجه الآن نحو الجراج.. إنه في نهاية في الشارع الرابع.

(شكرًا...)

خرج من الإدارة، وألقت يده التحية مُجددًا على الأمن. قبل أن يسلك الشارع الأوسط -الرابع- إلى الجراج، مرت عليه عربة صغيرة ينتعلها شاب نحيل أسمر قال له: تحتاج توصيلة؟

فلم يشعر بنفسه إلّا وقت ركب جواره قبل أن ينطلقا بنعومة، مارين بالثكنات المعدنية الكتومة.

-علاء...

-مدحت...

نظر مدحت له لثوانٍ، فبدا أقرب الشبه لنفسه. شاب لديه الكثير من الإمكانيات يرتدي وظيفة آلية أشبه بالمناصب الشرفية التي يحصل عليها العجزة بعد انتهاء أعمارهم، وظيفة أشبه بالعربة التي تقلهما. تجعلك على هامش الحياة، ترقبها من بعيد فوق مقعد قيادتك المُتعب الذي يقتل ظهرك ببطء.

ردد عقله الكلمات الملازمة له مجددًا: على كل حال، أي وظيفة ستكون أفضل مما مررتُ به!

كان عليه أن يسجل الإضافة التي كان يحاول دائمًا تجاهلها، فقد عبرها الآن إلى شاطئ الأمان. فقد كان شهره هذا آخر شهور الإعالة

الاجتماعية التي تمنحها له الدولة، بعدما تكرم والده أخيرًا بالقيام بآخر خدمة له؛ تلك الوظيفة عن طريق صديقه صاحب المزرعة.

شعر أن خواطره المُرة قد أغرقته تمامًا فنسي أن يتعرف على الرجل بصورة أفضل، وعندما تنبه لذلك كانت العربة الصغيرة قد توقفت أمام الجراج العملاق، فحيّاه مُجددًا، وقال بينما تلفحه حرارة الصيف الرطيبة: سعدت بصنيعك.. لنا لقاء، وحديث قريب إن شاء الله...

فقال له (علاء) بصوتٍ مُحايدٍ يحمل لكنه ساخرة مريرة: أشكرك.. ولا داعي للاعتذار.. فالأيام قادمة.. وحزبنا كبير سيضمك قريبًا شئت أم أبيت!

فضحك الاثنان ضحكة قصيرة شديدة المهنية، قبل أن تتدحرج العربة على الطريق مجددًا. التفت (مدحت) بجسده يواجه الجراج الضخم، زيتي اللون، والذي بدأ فمه يزأر فجأة، لتتحرك ضلفتاه العملاقتان عكس بعضهما، وينفرج الفراغ بينهما على أسطول الشاحنات الرابضة في جوف المكان.

تجشأ الفم العملاق هواء زيتي الرائحة، أكثر حرارة ورطوبة.. وتبدى في زاوية الفم، التي لم تلبث أن تحولت مع التقدم للداخل إلى حجرة مكتب زجاجية صغيرة، جمع السائقين، واقفين يتصايحون ويتمازحون بلهجات أقرب للعراك.

(أهلًا بوافد الحزب الجديد!)

صاح أكثرهم بدانة بصوت شديد الإزعاج، لم يخف ما به من جزل رغم ذلك. فاقترب من أزواج العيون المحتقنة المحدقة به ، قائلًا:

- صباح الخير.

فرد جميعهم بصوت متناغم أجش: صباح...

سرى الارتباك في وجه (مدحت) دافئًا من تحفزهم وأريحيتهم الغريبة، ومن تلك التحية المقضومة.. فصاح الأول مجددًا وبسرعة حاسمة: ستتعود على تحية حزبنا مع الوقت يا (مدحت).. كيف حالك؟.. تأخرت اليوم رغم أنك هنا منذ باكر.. ولكنني سأغفر لك ذلك فهو يومك الأول، أنا (محمد الدميري).. السائق الأقدم هنا.

(مدحت) بصوت متعلثم: تشرفنا.. أشكرك على كرمك سيدي.

لم يحرك (الدميري) عينيه من فوقه، بينما يُخرج مفتاح الشاحنة، ورخصتها. ويناولها لـــ(مدحت) بقوة. ثم لوح بيده بعصبية متبسطة: مُر على الأستاذ سمير بالمكتب؛ لتحصل على الإذن بالحمولة، وستجد الوجهة مدرجة في الأوراق الخاصة بها.. ثم عد لسفينتك!

بدأ مدحت يتحرك بالفعل، فقبضت كف الرجل على كتفه بقوة، وهو يقول بعينيه النافذتين في صحراء وجهه المكتظ: ولا داع للمجاملات تلك.. ووفر عبارات ترحابك وتعارفك مع الأوغاد القدامى لوقت لاحق؛ فقد حان وقت العمل!

ضحك الجمع خلفه في روتين، ومن فورهم تحركوا إلى شاحناتهم،

كأنما كانت ضحكاتهم هي شرارة احتراق وقودهم الداخلي؛ من أجل بدء رحلاتهم الشاقة اليوميَّة.

-شاحنة رقم ١٦ يا (دوحة)!

-٣-

القفص الزجاجي الأشبه بالمكتب.. عبق المكان المتشبع بعطن الورق.. عينا الأستاذ سمير الخضراوين.. شعره الرمادي.. يسراه حاملة القلم.. ثم باحة الجراج الخاوية بعد مغادرة السائقين.. الشاحنة ١٦ الجاثمة في الفراغ الفسيح كحوت وحيد، كابينة القيادة ذات الرائحة المحايدة، والتي لا تحمل أدنى أثر لسائقها السابق.

عندما اعتلى الوحش، وأدار محركه المتطور، انتابه الشعور الوحيد الجيد في هذه المهنة المُرهقة. كان يرى العالم من عِلّ، ويشعر دائمًا كأنما يقود بارجة حربية في طريقها لمهمة خاصة.. أو برجًا سحريًّا متحركًا مُجاوزًا لحشرات السيارات الفارهة.

بإحساسه المتدفق بالسمو، انطلق عبر فوهة الجراج إلى القطاع رقم ١٣ب، والذي سيكون مصدر حمولته القادمة.

مروضًا وحشه، عبر عالم الظل إلى عالم النور. يدفعه زئير المحرك التوربيني. اجتاز الممرات المصقولة المرصوفة مسترشدًا باللافتات الدقيقة، إلى أن توقف أمام الثكنة المعدنية العملاقة، المحاطة أجنابها بأسوار حجرية عالية، والمعنونة باللون الأزرق على خلفيتها البيضاء: القطاع ١٣ب.

خفت إيقاع محركه التوربيني ليحل محله الأزيز الإلكتروني لبوابة القطاع؛ إذ كشفت البوابة عن ساحة شديدة الاتساع، مُقسمة إلى حجرات لا يمكن لعقله المحمول على بصره إحصاؤها. تقع الحجرات على جانبي الممر الرئيسي الذي يشق المكان إلى نصفين، بالغًا نهاية القطاع ببوابة أخرى منفرجة عن أبسطة ومروج خضراء مُرحبة.

بعقلٍ مشدوهٍ غائبٍ، وبأقدامٍ لا إراديَّة، ألقى الخطوة تلو الأخرى على ملاط الممر، بينما تحفه رائحة خفيفة أشبه برائحة إسطبل الخيول. فنظر إلى أبواب الحجرات المُغلقة، ثُم دنا بناظريه إلى الشق الظليل أسفل الأبواب البُنيَّة، فنمّت حركتها الخافتة على جدار الضوء الرقيق عن بعض النشاط الذي يدور بالداخل. أشتمت أذناه بعض الحفيف، واصطكاك أسنان ماضغة، بالإضافة إلى أنين خافت منتشٍ.

لم تمنعه حواسه المشغولة من الاستطراد في الخُطى، إلى أن بلغ البوابة الأخرى. سمع بجواره شخصًا يصيح: قف.

فالتفت إلى الصائح، قائلًا بارتباك: أنا السائق.. وقد أتيت لنقل الحمولة من...

قاطعه الرجل المرتدي زي الأمن، قائلًا بلهجة أشبه بالاعتذار: إنها المرة الأولى التي يحدث فيها هذا التأخير.. إنهم على وشك الاستعداد لنقل الحمولة لشاحنتك.

وأضاف بوجهه الطفولي الباسم: إنك السائق الجديد.. ما اسمك؟

ذوى ارتباكه السابق مع الابتسامة المعتذرة، وقال: مدحت.. وأنت؟

فأجابه الرجل: أحمد.. رئيس الطاقم الأمني.

-تشرفنا.

عاد (مدحت) بحواسه إلى المروج الخضراء المتسعة، وقد لاحظ بصره الإضافة شديدة الأهمية, والتي كان قد أغفلها في نظرته السابقة. كانت هناك بشرًا يجولون في الحقول. أشكالًا وألوانًا مختلفة منهم؛ الأبيض، القمحي، الأسمر، الصغير، الكبير. منهم من يجول ساهمًا ببطء ومنهم من يهرع مسرعًا خلفه آخر. إلّا أنهم جميعًا كانوا يشتركون في شيء واحد؛ كان جميعهم عرايا حليقي الرؤوس.

سمع (أحمد) يقول بجذل خفيف: منظر مدهش.. أليس كذلك؟

فقال بحلق جاف، ولا يزال لذع الانبهار في أطراف حواسه: أهُم...

بنفس الجذل يقول مرافقه: نعم.. إنهم الدرجة الدنيا من البشر.. حيوانات هذه المزرعة.

تواترت كلمات الرجل في خلفية (مدحت) البصرية الثابتة: هُم الآن في الترهة اليومية المخصصة لهم.. قبل أن يتم تخديرهم بواسطة السوار المعدني حول أقدامهم اليمنى.. ثم نقلهم بهدوء إلى حجراتهم.. ويتم استبدال المجموعة التي أمامك بمجموعة أخرى.. نفعل ذلك كي يسهل السيطرة عليهم.. فأنت لم ترَهم وهم يتصارعون بطريقة قد تفتك ببعضهم البعض!

في حجراتهم يمكثون بقية اليوم.. حيث يأكلون ويتضاجعون وينامون.. ليأتي يوم جديد تتكرر فيه الدورة اليومية.

كانت لهجة (أحمد) تشي بنوع من الزهو بالمعرفة مقارنة بجهل (مدحت)، ولكن الأخير لم يشعر بها، وهو ينظر إلى ذاك الحيوان البشري الراكض هنا وهناك. أخيرًا عاد ليلتفت إلي الرجل معيدًا تقييمه البصري له من جديد. وسأل الرجل الأربعيني الأصلع مجددًا: مالي لا أرى الفريق الطبي، والعلمي الخاص بهم؟

فابتسمت تجاعيد الرجل العميقة رغم صغر سنه النسبي، رادًا: هم في الطابق العلوي من القطاع.. فهو يُسهِّل الرصد والرقابة المستمرة عليهم.

تابع (مدحت) سبابة الرجل المشهورة نحو الطابق. فارتابه الاندهاش من عدم ملاحظته السابقة له، وكان باب مصعده مخفيًّا بجوار بوابة القطاع.

لمح الاثنان عند أطراف البصر حركة عنيفة سريعة، فقد كان الحيوان الهارع الذي سبق ولاحظه (مدحت) يقترب سريعًا منهما. كلما اقترب كانت ملامحه تضح أكثر فأكثر. كانت أنثى، قمحية البشرة. عارية الجسد العضلي المتين. حليقة الرأس مثلها مثل جميع أقرانها. أما وجهها فكان أكثر ما يميزه هو العينان الواسعتان السوداوان. كانتا بارزتين لامعتين إلى الحد الذي تتضاءل معه بقية ملامح الوجه المعروق، رغم الفم البارز الغليظ الصائح بأصوات هتماء، والأنف المنحوت، والوجنة السخية.

كانت قد اقتربت بشدة، الأمر الذي ضخ الأدرينالين في شرايين (مدحت) وحفز عضلاته، استعدادًا للركض. لكنها فجأة ارتطمت بالهواء أمامها ولمع من موضع ارتطامها بريق وأزيز خافت. جعل ارتطامها جسدها يرتد هاويًا بظهره على العشب الأخضر. فتقلص وجهها من الألم والمفاجأة. وتأوهت متمتمة بعبارات غامضة.

أمام ناظري (مدحت) المدهوشين، حاولت النهوض. همت فبرزت عضلات بطنها ونفر نهداها. ولكن قبل أن تنجح، صدرت من سوارها تكة خافتة، جعلت جسدها يهتز بخفة، كأنما تحلم. ثُم خمدت حركتها تمامًا.

كان ضحك (أحمد) يتواصل مع الهلع البادي على وجه (مدحت)، خاصة بعدما كان يستعد للركض هاربًا، ثُم قال من وسط ضحكاته: لا تقلق.. هناك غلاف عازل من الطاقة يعيق هروبهم.. كما تم الآن حقن مادة مخدرة عن طريق سوارها حتى نتخلص من هياجها تمامًا!

تفاعلت حيرة الجهل مع الغيظ داخل نفس (مدحت)، فأغرق المزيج ثنايا جسده بالعرق، وعقد لسانه داخل فمه. أما (أحمد) فقد تركه، مُحضرًا أحد الأسرة المعدنية ذات الإطارات من حجرة قريبة، وتقدم به حتى بلغ موضع الغلاف العازل الافتراضي. لمسه بينما يضغط على زر في حزامه، فانشق اللمعان الخافت حتى بلغ الأنثى المخدرة.

بدأ يحملها، فهرع نحوه (مدحت) مُساعدًا. كان جسدها العاري البض دافئًا. حملا الجثة إلى السرير، ثُم دفعاه عبر الممر الطويل، بينما

عيناهما تحدقان بالوجه النائم .

بم تُفكر يا تُرى؟ بم تحلُم؟!

عكس (مدحت) تساؤلاته المكتومة على الوجه الخامل بينهما. قبل أن يتوقف (أحمد) أمام الحجرة رقم ٢٠، وفتحها ببطاقته المغناطيسية. فتجلت لـــ(مدحت) الرائحة الحيوانية للحجرة البيضاء أكثر قوة، رغم العناية الواضحة بها. حملاها مجددًا إلى السرير، الواقع جوار فتحة بالجدار مغلقة بصمام، والتي يبدو أنها مخصصة لدفع الطعام. تحت الفتحة أخرى، يبدو أنها لصرف بقايا الطعام، وفي إحدى الزوايا يقع المرحاض الملتصق بالأرض.

طفح التساؤل المُلح على لسان (مدحت)، فقال: ولكن كيف تُطعم وتعني بنفسها؟!

فضحك (أحمد) بخفوت قبل أن يجيب لاهثًا: هي ليست غبية إلى هذه الدرجة.. إنها أمور تدرك بالغريزة وتثقلها الخبرة.

أنهى عبارته الأخيرة، بينما يُغلق الباب خلفها.. فتبدت العينان العميقتان للوجه البض، مخترقة كل الأبواب المادية والمعنوية، لتنطبع على ذاكرة (مدحت) بانحفار حارق مُلتهب.

-٤-

عندما توسطت الشمس كبد السماء، كان وجه الفتاة قد توسط سماء (مدحت)، وبلغ ظهيرته الخاصة فأشعل نفسه القاحلة. فقد احتلته سكناها

المميزة طاردةً العقل الواعي، لتعبث بباطنه كما تشاء. ولم يعد حقًا يعي ما يفعل، وكيف يسوي يومه. على سبيل المثال، كيف ومتى أخرج طاقم الأمن الحمولة الحيوانية؟ وكيف ومتى نقلوها إلى شاحنته؟!

لكنه إذ يحاول استرجاع تلك الدقائق الجديدة الوافدة على حياته الرتيبة، وهو داخل شاحنته منطلقين على الطريق، إذ يسترجع ذلك، يجد نفسه تتذكر الشيء الوحيد الذي ما يزال عالقًا بواقعه حتى الآن؛ إنها الحمولة التي يجرها خلفه كذكرى ثقيلة.

لكنه لم يستطيع بدقة تذكر ما أحس به، عندما أُخرجت من البوابة الخلفية للقطاع ١٣ب، الأقفاص الفولاذية القوية، والتي يحمل كُل قفص منها فرد واحد من الحيوانات البشرية. فقد يخونه عقله ويهول مما شعر به وقتها من أجل ملائمة حالته النفسية والجسدية الحالية.. لا، لا يمكنه التذكر؛ لكنه سيجازف على كل حال، كما يجازف الآن بذهنه الشارد مع سرعته البالغة.

إنه الخواء ولا شيء سواه. ذلك الشعور العدميّ الذي أصابه عندما شرعت أزواج العيون شبه الناعسة خلف قضبان الفولاذ بتجميد سوائل جسده. كان قد سمع (أحمد) يقول أنهم يحقنون الحيوانات بجرعات مهدئة خفيفة تضعهم في تلك الحالة. كما كان يعلم تمامًا أن عقولهم الغبية ما كان لها أن تفكر، فغباؤها المُخلق في المعامل الجينية هو ما أهلها لتكون نوعًا من أنواع الغذاء للبشر العاقلين.

انتبه على شرود شاحنته مع شروده، فتفصد العرق منه رغمًا عن

الكابينة المكيفة، واتسعت عيناه، فأمسك بالمقود بقوة ليستعيد التوازن مُجددًا. فقد صدمه مشهد اقترابه من شاحنة أمامه، تمامًا كما صدمه السؤال التالي لتجاوزه المحنة العابرة.

هل أحببتَ أنثى الحجرة رقم ٢٠؟

فصفعه عقله بإجابة باردة: تقصد الحيوانة رقم ٢٠؟!

واحتل عقله لسانه، فقال لنفسه في خفوت، بينما تستعيد أنفه الرائحة الحيوانية: هل نسيت أنها مُجرد حيوانة عجماء؟! هي لا تعقل شيئًا، ولسوف تُحال قريبًا إلى مصنع اللحوم ليتم بيعها بالقطعة!

أنسيت طعم اللحم؟ هل ستتشكك لحظة في مذاقه اللذيذ؟! لقد ولدت ووعيت على تدجين الحيوانات البشرية، ونشأ جسمك على لحومها مثل جميع سكان هذا الزمن!

كيف تقع في حب طعامك؟! كيف يعشق المرء حيوانه؟! أي حب شاذ ذلك؟! أبمجرد أن قلبك لم يُجرب الحب قبلًا ، فتقوم بإلقائه على أقرب أنثى تتنفس؟! هل حُرمتَ من حنان الأم والأب، لتمنح كل جرعاتك لأقرب حيوان!

ربما هو إشفاق، أو إعجاب.. ولكن هل من إشفاق يصيب صاحبه بحمى كتلك التي أصابتك منذ رأيتها؟! لقد لوث وجهها كل خلايا بصرك، فبات يطاردك في كل مكان، على المقود، على الإسفلت، على اللافتات!

وعندما دخل مصنع اللحوم لإنزال حمولته، كان وجهها يحتل كل وجه حادثته، بل كل رأس بشرية -حيوانية تُجز على المذبح الآلي!

في مساء بلا قمر، كان قد أفرغ كل مشاعره وجهده مع حمولته. هابطًا صهوة شاحنته. قبل أن يواجه رفاقه الجدد، الواقفين تحت أضواء المكان الشاحبة، في نفس موضعهم السابق. كأنما لم يمر الزمن، الذي كاد أن يحسبه (مدحت) بالدهور.

(مرحبًا بك يا دوحة في حزب الأوغاد القدامى!)

هكذا اخترقته صيحة (الدميري) المزعجة دومًا.

-٥-

قال (الدميري) بصوته الأجش، وعيناه اللامعتان المميزتان تحيطان بـــ(مدحت): مهنتنا الملعونة هذه.. هي أشبه بمهنة الحانوتي قديمًا.. الفرق الوحيد الذي أراه هو أن الحانوتي كان ينقل أجساد كانت تحمل عقول واعية.. بينما نحن ننقل حيوانات نافقة بلا عقل!.. وهو فرق واهٍ جدًا كما ترى! .. فالموت لا يعطي امتيازات خاصة لزائره!

تشرب (مدحت) رائحة عرقه الملحية، تمامًا كما تشرب كلمات الرجل، بينما يتطلع في تضاريسه القمحية الأشبه بصخرة صارعت الزمن وصرعته. كان (الدميري) قد أفلح في نصب الفخ للسائق الجديد، وحره إلى المقهى القريب من المزرعة.. لم يستغرق تعارفه مع الرجال سوى

دقائق معدودة، انتهت إلى رحيل معظمهم -ملقين نظرة خبيثة على (مدحت) تحمل معنى أنه من سيتحمل المشقة القادمة وحده- للهجوع في الترع الأخير من الليل. فاستقرت جلسة (التشريفة) في النهاية عليهما.

رغم ازدحام المقهى المفتوح على هواء الشارع المرحب، كان (مدحت) يشعر في جلسته وحديثه الغريب مع زميله الأقدم أنهما وحيدان كالقمر الغائب، بعيدان عن المحيطين بُعد النجوم الواجمة في تلك الليلة.

بدا في عيني الكهل معنى خبيث ما، لم يفطن له (مدحت).. لكنه فوجئ بالرجل يضيف بلهجة لاعنة: لعنة الله على الهرمونات التي يحقنوها في تلك الحيوانات.. فالحيوان منهم لا يكاد يحبو إلّا وتجده صبيًا اقترب بلوغه بعد عدة أيام!.. وما تكاد أنثاه تحبل حتى تجدها قد وضعت الوليد خلال أشهر خمسة على الأكثر!

سأله (مدحت) بعقل غائب، بعد أن ارتشف من شايه: ولكن، هل سنحمل كل يوم مزيدًا منهم لشركات اللحوم؟!

أخرج (الدميري) سيجارة محشوَّة جديدة، عرضها على صديقه الشاب في صمت؛ فهز الأخير رأسه ويديه مصعوقًا. صعقة (مدحت) فجرت ضحكة (الدميري)، أشغل السيجارة ساحبًا منها نفسًا عميقًا، احتقنت في إثره عيناه. قبل أن يهز رأسه وهو يقول بفم نافث دخانًا عطرًا: بالطبع لا.. أغلب الظن أننا سنحمل الأيام القادمة أطعمتهم إلى المزرعة.

وابتسم فمه عن أسنان مصفرة: لقد كنتَ من سعداء الحظ.. فقد

أتيحت لك الفرصة لرؤية ومعرفة الكثير في يومك الأول.

ضحك قليلًا قبل أن يضيف: هذا جيد وسيء.. فالملل سيقتلك في كل أيامك التالية!

ضحك (مدحت) مُجاملًا.. رُغم كل شيء إلّا أنه لا يحمل لهذا الرجل سوى الكثير من الارتياح.. قال له مُبتسمًا: أأنت متزوج؟!

فرد (الدميري) بابتسامة، وصمت لحظة ينفث خلالها مزيدًا من الدخان، قبل أن يقول: بكل تأكيد!.. أولا ترى أنني أحدثك عن الملل! أنت لست متزوجًا ولا تعلم ما أقول.

أجابه (مدحت) سريعًا خلف الوخزة التي نالت من قلبه: بل المشكلة إنني أعلم أكثر مما يجب!.. فلدي مشاكلي الخاصة مع والدي، بينما أمي قد تَوَفّاها الله منذ خمسة سنوات.. وقد كنت أشبه باللعنة التي تُذكر أبي دومًا بصراعه الدائم مع أمي!.. الحق أنني عشتُ أيامًا عصيبة بينهما بما فيه الكفاية!

بدا على ملامح الرجل التي تراخت بعض الشيء، نوع من الأسف.

ثُم قال كأنما تذكر خيط مبتور من الحديث فجأة: بالحديث عن الملل.. علي أن أضيف أن أيامك الأولى ربما تكون جيدة في البداية.

وصمت في غموض، تاركًا السؤال يدور بينهما قبل أن يلفظه (مدحت) مُتناسيًا جرحه القديم: ماذا تقصد؟

تراجع الرجل في مقعده، وضحك بخبث قائلًا: لابد أن أعترف.. لقد

استمتعتُ كثيرًا بالنظر إلى أجساد إناثهم البضة!

حاصرت الضحكات من الطرفين عبارة الرجل، ثم اقترب منه مُسددًا عينيه إلى عيني (مدحت): اعترف بالله عليك.. ألم تفعل؟!

شعر (مدحت) بالفوران في أعماقه، وبرز قمر وجه فتاته في سماءه الخاوية، لم يكن قد فارقه الوجه المقترن بالأحاسيس أبدًا، بل كان قد توارى خلف عينيّ (الدميري) وضحكاته الصاخبة.

تحت وطأة الحصار الخارجي والداخلي، ركع (مدحت)، ووجد رأسه تومئ للكهل إيجابًا بخجل بدائي كصاحبة مصدره.

-٦-

خاض غمار الأيام، كما خاضت شاحنة الزمن جسده ذهابًا وإيابًا، جارَّة خلفها الحمل الثقيل الجديد من تعب العقل والجسد، والتهاب المشاعر الدائم. كان ذلك هو الترع العسير من الحمولة الرابضة داخل أقفاصه الفولاذية المحكمة. أما الترع الأيسر فكان الصحبة الممتعة لحزب (الدميري) وشلته التي كانت تمتد لتشمل كثيرًا من عمال المزرعة. أما جرعته المخدرة الدائمة، فقد كانت مرأى فتاته الساكنة للحجرة رقم ٢٠ في قطاع ١٣ب، قصرًا وليس باختيارها بالطبع. كانت هي داءه ودواءه ، فيروسه ومصله. مُسكنه الضروري رغم أعراضه الجانبية المدمرة.

نتيجة لزياراته المتكررة للقطاع، كانت علاقته بعم (أحمد) قد توطدت بشدة، كما أدت تلك الزيارات إلى انتشار خبره بين العمال

والموظفين. حتى أن (الدميري) كان دائمًا ما يناوشه بخبث فاحش قائلًا عبر أسنانه الصفراء: وأنا الذي كنت أتحدث عن الملل!.. أتعلم.. لقد اقتنيت قطة وسأتزوجها قريبًا.. لعلي أُخرس موائها الدائم!

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد كان الشافع الوحيد لعدم التقدم بشكوى ضده هو خلقه الحسن والتزامه الواضح. كان حياته أشبه بمقعد قيادته، بكل آلامها وما تحمله في نهاية كل طريق من مرتب مستقر، وحب مجنون شاذ، غير مستقر تمامًا!

لكن ولأن الطرق غير مأمونة، فقد كانت حياته كذلك. كان عليه أن يستعد لكسر أول مقاعد قيادته. لم يكن هنالك علامة، أو إشارة تشي بما قد يحدث.. كان العالم رتيبًا مستقرًا منذ قدر له أن يوجد، شمسه جاثمة على بطن السماء الزرقاء، المصابة بالحمى الصيفية الموسمية. بشره -أو على الأقل البشر الواقعون في دائرة حياته- كما هم بذات الانتصارات والانتكاسات. لم تُسجل الدفاتر والتقارير الحياتية جديدًا، إلى أن أتت تلك اللحظة التي بحث فيها عن فتاته فلم يجدها. ووشت كلمات عم (محمود الشريف) السائق عن التقرير الجديد الصادر مؤخرًا من مطابع القدر. كان عم (محمود) هو من سوف يتكلف بنقل الحمولة الخاصة جدًا إلي جزارها ومُصنعها الجديد.

لم يكن من (مدحت) سوى أن هوى داخل نفسه، مُسيطرًا على قشرته الخارجية بكل ما أوتي من تصميم، بينما حملت كلماته سهام

طاعنة إلي الجميع، وخاصة عم (أحمد) الذي دافع عن نفسه بغضب مكبوت: ومالي أنا بكل ذلك؟! أنا مُجرد فرد أمن!

-كان لابد أن تقول لي!

احتقن الرجل، قائلًا بصوت أهدأ: أقسم لك أنني لم أكن أعرف.. ثم حتى لو كنت قد أخبرتك.. ما الذي سيغيره ذلك !

وحُملت الشفقة على نبراته، وعينيه المنعكسة عليهما ألوان مروج المزرعة خلفهما: يا بني.. أعقل الأمور ولا تجعل قلبك يعبث بك.. هي حيوانة.. وقد كان ذلك مقدرًا لها في النهاية.. أنت كنت تعلم وكلنا نعلم ذلك.. انتبه لعملك ولا تكن ساذجًا يا صديقي!

احتبست الدموع بعينيه، بينما لا يزال الغضب الساذج يكبل مشاعره. فلم يكن منه إلّا أن أنطلق مع حمولته في المهمة التي كُلف بها. هاربًا من مرآها الأخير، من ذاته ومن الناس.

بيدين باردتين قبض على المقود، واعتصر دواسة السرعة، بينما يشق الطريق شقًا. ووجهها لا يزال ثابتًا في مكانته، لم يتزحزح. مازال يحتل واقعه كله، تمامًا كما ملأ أحلام لياليه الماضية.

أدار مقوده مخففًا السرعة، ومُتجاوزًا حادثًا محققًا. بينما يتداعى على زجاج شاحنته وجهها المستغيث خلف القضبان كما زاره في كابوس الليلة قبل الماضية. ورأى بعين الخيال، وبقلب دامٍ، جسدها قليل الحيلة يُجر جرًا عبر الميكنة إلى حتفه الأخير ككائن حي؛ المذبح الآلي.

-٧-

أقبل الليل الخاوي، فأفل يوم (مدحت) المشهود. داخل الجراج؛ نقطة البداية والنهاية للدائرة الدائمة، وقف أمام زملائه مُهدئًا روعهم وقلقهم. مزح معه (الدميري) مشفقًا: إياك والقيام بشيء أحمق!

فابتسم الجميع بخفوت، وجاوبه عم (محمود) قائلًا: ترك العمل مثلًا؟! ليته يفعل!

فلم يملك (مدحت) إلّا أن ضحك بخفوت من مزاحهم ومشاغباتهم، قائلًا: لا تقلقوا يا جماعة.. ستجدونني هنا غدًا وكل يوم إن شاء الله.. لن يتغير شيء.

ربما داخل نفسك...

ردت نفسه بالإجابة الماكرة سريعًا، لتُنعش نيرانه التي لم تنطفئ بعد. فضغط على جراحه بابتسامة واثقة أمام العيون اللامعة المتشككة: لا تقلقوا يا رفاق.. لن أستقيل من الحزب، وسنبقى على العهد إلى أبد الآبدين!

فضحك الجميع براحة نسبية، وقال (الدميري) عاقدًا حاجبيه: الآن فقط اطمأننت عليك.. وعلى مستقبل الحزب طبعًا!

فتكرر الضحك من جديد، مُخدرًا جراح (مدحت) المتحلطة حديثًا.

-٨-

بينما يخطو خطواته البطيئة المتثاقلة على ملاط السوق التجاري اللامع، تحسست يداه مُجددًا أول مرتب لوظيفته الشقية.. كان أول وأصعب مرتب، كأنما هو مكافأة عن كل ما مر به بسبب نفسه كما لابد أن يعترف.

ضاعف إحساسه بملمس المال الطازج من عزيمته المتجسدة في خُطاه، التي صارت أقوى وأكثر ثقة.. كان يعلم تمامًا ما عليه فعله؛ فقد خطط للأمر منذ أسبوعين سابقين.

دلف إلي قسم اللحوم البشرية المدرج أسفل عنوانه تفصيل: (أفخر أنواع اللحوم)، توقف أمام القطع الحمراء الكبيرة المعروضة ذات الرائحة المميزة .

قام بانتقاء قطع طازجة متفرقة من مناطق الجسد المختلفة؛ الذراع، الساعد، الفخذ، الساق، البطن، الرأس، القلب والعينين. وقايض البائع بما تطلب من عرقه وأعصابه الورقية. حصل على اللفافة الباردة على ذراعه، بينما يبتسم متذكرًا بفرض (الدميري) عزومة إجبارية لنفسه من أول مرتب لزميله الشاب.

لم يكن ينتوي دفن الجثة الصغيرة بكفنها البلاستيكي تحت وثن القبر.

لا، فقد كان يحمل لها مصيرًا آخر، مصيرًا أعظم.

استقل طرقات حارة عدة، واللفافة لا تزال محتفظة ببرودتها في تصميم، أو كأنها تذكره بالوعد الذي قطعه على نفسه. حجز دوره في طابور المحرقة، التي دخلتها القطع الطازجة النيئة في حمرتها وبياضها البديعين، قبل أن يرتفع الزئير الناري، ليحرق الأنسجة البروتينية والنشوية والدهنية، كما يحرق ذكريات (مدحت) الأليمة؛ حبه الساذج العظيم المخذول، خلافات والديه، وصراعه مع أبيه؛ ليخرج قلبه من الطرف الآخر نقيًّا طاهرًا مثلما خرجت كتل اللحم من الطرف الآخر كومةً طازجةً من الرماد بحجم كف اليد. أفرغها العامل بحرص في علبة خشبية أنيقة تحمل شعار المحرقة، ثُم سلمها لـــ(مدحت) بهدوءٍ بارد.

على قمة برج القاهرة الجديد، أمام القمر المُستحي، وقف مُتطلعًا إلى الأرض بالأسفل. فرأى وجه فتاته مرسومًا بالأضواء المنمنمة مرتاحًا متألقًا. إزاء ذلك الوجه المنتشي، فتح العلبة؛ لينثر رمادها على أجنحة الرياح التي اشتدت في الحين .

وبينما ينثر أزهاره فوق الوجه المضيء المسجي على صفحة الظلام، تمنى أن تسقط أمطار رماده بردًا وسلامًا على دنياه الجدباء.

بتكتب رواية أو قصص أومقال..

بالفصحى, بالعامية أو حتى بالأنجليزي..

بتحب تكتب, او تعرف حد بيحب يكتب, كلمنا..

هنعمل كل اللي نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك وتكون كاتب معروف..

لأن في كيان, للإبداع مكان..

اتصل بينا على :

0235688678 – 01289344096 – 01001872290

وابعتلنا كتاباتك على :

- kayanpub@gmail.com

وتابعنا على صفحتنا عالفيسبوك :

- كيان للنشر والتوزيع

Kayan for publishing